القسم الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ، ونستعينه ونستغفره ، ونتوب إليه من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيّدنا محمداً عبده ورسوله ، بلّغ الرسالة وأدّى الأمانة ، ونصح الأمة ، وكشف الغمة ، اللهم صلّي وسلّم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن والاه . . .

اللّهم إني أعوذ بك من فتنة القول ، كما أعوذ بك من فتنة العمل ، وأعوذ بك من العجب فيما أحسن ، كما أعوذ بك من التكلف لما لا أحسن، اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلاً ، وأنت تجعل الحزن إذا شئت سهلاً سهلا . . .

سبحانك لا علم لنا إلاّ ما علمتنا ، فعلّمنا من لدنك علماً إنك أنت السميع العليم . . .

هذه هي الحلقة الثانية من كتابي « مشاعل على الطريق » أزفّها إلى القارىء الكريم على استحياء ، فلئن لم يكن هنالك أمجاد ومكرمات ، فعلى الأقل صيحات وصرخات واستغاثات . . . ولا نكون كما قال الشاعر العربي :

لا خيـل عنـدك تهـديهـا ولا مـال فليسعد النطق إن لم يسعد الحال

إنها معالم وصور على طريق الإسلام تتهدّى بها الأمة في سيرها المدلج في ليل طويل ما أرى أنّ له آخرا . .

فلعلي ، وإني لن أيأس من رحمة الله ، ولن أقنط منها ، لعلي في هذه المقولات والسطور التي أودعت فيها قلبي وروحي وذوب شبابي أرجع منها عند الله تعالى في آخرتي بركن يكون لي معتصماً عنده عزّ وجلّ .

ولعلي كذلك يكون لي سبباً من أسباب الدعاء الصالح المستجاب من أخ صالح يذكرني فيدعو الله ويستغفره لي وأنا في ديار الحق .

وما ندري ، لعلّ الله يهدي به أجيالاً من الناس في هذا العصر أو فيما بعد أو في كليهما . . .

ولعل جيلاً سيأتي من بعد يقرأ ما كتبت فينتفع به ، ويكون له نبراساً يستضيء به سراه الطويل .

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل . .

المؤلف

الفصل الأول

السراج المنير

محمد رسول الله

نبيّ الحبّ ، ورسول الرحمة

صلّى الله عليه وآله وصحبه وسلّم

مدخل إلى هويّة محمّد ﷺ

يتساءل المرء . .

من هو محمد بن عبد الله ؟ ﷺ ؟

ألم يكن رجلاً من الناس ؟

هب أنه كان فاتحاً أو عظيماً أو مصلحاً ؟ فلماذا لم يحصل لهؤلاء ما حصل لمحمّد ﷺ ؟ . .

وهنا يكمن الخطأ الجسيم . .

إنّ المعادن كلها تشترك في الجنس من حيث أنها معدن لها خواص واحدة ، ولكن بين النحاس والذهب فرقاً كبيراً ، وبين الزنك واليورانيوم كذلك بوناً شاسعاً ، فرقاً في كل شيء ، وبوناً من كل ناحية .

أجل . إن محمداً ﷺ كان بشراً من حيث كونه إنساناً كامل الإنسانية مستوي البشرية ، ولكنه كان سيّد البشر بل سيّد ولد آدم .

فهو الإنسان الأكمل ، وهو النور ، وهو أعظم إنسان خلق أو سيخلق إلى يوم القيامة .

إنه وقد صدق قول الحق تبارك وتعالى فيه ﴿ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب: ٤٠] .

هذه هي هوية محمد ﷺ لخّصها القرآن المعجز ومن أصدق من الله حديثاً ؟!

ولمحمد صلوات الله عليه عظمات ومواقف ولشخصيته جوانب يحتاج في دراستها إلى مجلدات وربما يفني العمر ولا يصل المرء منها إلى الوشل ، لذاك تحدثت في هذه العجالة من ذلك على أن محمداً رسول الله نبي الحب ورسول الرحمة ﷺ .

سأجعل للبحث مدخلاً فأتحدث عن صفتين رئيسيتين من صفات الله تعالى (الله ـ الرحمن) ، وأربط بين كل منهما وما يلزم عنها من مراتب رفيعة وأوصاف لنبينا محمد صلوات الله عليه ، وسأتحدث عن الرحمة وما يتعلق بها وما يرتبط بذلك كله من علوم وآثار .

ثم سأتكلم عن آية قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة : ٢] إلى آخر الآية فأبين معناها وما تشير إليه إجمالاً .

وفي ما بعد ذلك سآتي على تفصيل ذلك الإجمال مع الشواهد الضرورية .

وفي ختام البحث سأقوم بجمع الفوائد ورصد النتائج المترتبة على ذلك كله .

وحرصت على أن أستدل لكل ما ذهبت إليه . .

ولا أدعي في ما قمت به الكمال ولا الصحة بل هو جهد ، وأرجو الله تعالى أن يكون حظي من عملي هذا زلفى إلى رسول الله صلوات الله عليه وتعبيراً بسيطاً عن حب له في كوامن النفس ولواعج الصدر وخلجات القلب ، بل في كل قطرة من قطرات الدم الذي ينبض به الفؤاد .

وثقتي بسيدي أبي الزهراء أن يقبل هذا العمل المتواضع فهو الكريم البرّ الرؤوف الرحيم . .

الله .. الرحمن

قال تعالى : ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [الإسراء : ١١٠] .

الله : الاسم العلم على واجب الوجود ، وهو اسم الذات ، وهو سيد الأسماء الإلهية مطلقاً ، وهو عند كبار الأئمة والمحققين اسم الله الأعظم كما ورد ذلك عن الإمام أبي حنيفة النعمان رضي الله عنه ، ومعناه : (المعبود بحق) أي المستغني عن كل ما سواه ، المفتقر إليه كل ما عداه وأصله عند الجمهور (الإله) حذفت الهمزة وادغم أحد المثلين في الآخر ، وهو مأخوذ من : أَله يأله ، الهة أي عبد ، وقال الخليل إنه اسم جامد ، وقال البعض معرّب عن السريانية والأول أشبه .

والرحمن ، على وزن (فعلان) وهو الذي وسعت رحمته كل شيء ، فيه زيادتان : الألف والنون ، وزيادة المنهى تدل على زيادة المعنى ، وفي الرحيم زيادة واحدة ، ففي الرحمن من المبالغة ما ليس في الرحيم ، وقال ابن القيم الرحمن دال على الصفة القائمة بذاته تعالى والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم اهـ . والرحمن وصف خاص بالله لا يطلق على غيره تعالى بخلاف غيره .

وبالجملة فصفة الرحمن تدل على كثرة الإحسان الذي يعطفه سواء أكان جليلاً أم دقيقاً .

ولأن هذين الاسمَيْن سيدا الأسماء كلها والأول متقدّم جاء في الحديث (خير الأسماء عبد الله وعبد الرحمن) ، وكان رسول الله صلوات الله عليه

يحبهما ويسمى بهما ثم إن (الله) هو ذكر العارفين لأنه سيد الأسماء على الإطلاق وأشرفها وأحبها إلى ربنا تبارك وتعالى .

جاء في كلام الإمام أبي العباس المرسي رحمه الله تعالى من كبار العارفين (ليكن ذكرك الله) ، فإنه للتعلّق ، وسائر الأسماء الإلهية للتخلّق .

وما أحسن ما قال . . .

* * *

رسول الله وخاتم النبيين

معلوم أن الرسول عبد أوحي إليه بشرع يعمل به وأمر بتبليغه ، وأن النبيَّ عبد أوحي إليه بشرع يعمل به وإن لم يؤمر بالتبليغ[1] .

وعلى هذا فبينهما عموم وخصوص مطلق لأن رسول نبي ولا عكس كما رجحه المحققون ، إذا عرفنا هذا فنحن أمام آية كريمة من كتاب الله تعالى يحلو لنا أن نقف عندها مليا نجتلي من محاسنها ونقطف من أزاهيرها ، يقول تعالى ، منوّها بشأن نبيّه محمد صلوات الله عليه : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة : ٢] .

أما تفسيرها فدونك ما قال النسفي في (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) : هو الذي أرسل في الأميين رسولاً منهم أي بعث رجلاً أمياً في قوم أميين ، وقيل (منهم) قوله (من أنفسكم) يعلمون نسبه وأحواله ، والأمي منسوب إلى أمة العرب لأنهم كانوا لا يكتبون ولا يقرؤون ، من بين الأمم ، وقيل بدئت الكتابة بالطائف وهم آخذوها من أهل الحيرة ، وأهل الحيرة من أهل الأنبار ، يتلو عليهم القرآن ، ويزكيهم ، ويطهرهم من الشرك وخبائث الجاهلية ويعلمهم الكتاب ، القرآن ، والحكمة ، السنّة أو الفقه في الدين ، وإن كانوا من قبل محمد ﷺ لفي ضلال مبين ، كفر وجهالة ، و(إن) مخففة من

---

(١) الباجوري على الجوهرة ص/٨ .

الثقيلة ، واللام دليل عليها ، أي كانوا في ضلال لا ترى ضلالاً أعظم منه اهـ .

هذا هو تفسير الآية عند المفسّرين ، فلا يعدو الأمر عندهم ما عند النسفي كثيراً ، وقريب منه ما قاله البيضاوي بشروحه كالخفاجي وشيخ زاده والقونوي . وربما كان لهذه الآية إشارات سوى ما ذكرنا لا تخرج عن أصول الدين وقواعده الكبرى ، بل هي زيادة محمودة مضبوطة بضوابط الشرع والعقيدة الصحيحة المنجية ، وخلاصة ذلك ، أن الآية عبّرت بضمير (هو) العائد على الله تبارك وتعالى الذي ابتدأت السورة بتسبيحه وتقديسه ، وهذا يشير إلى أن الرسالة وفي ضمنها النبوة المشتملة عليها (إذ كل رسول نبي) كلتيهما اصطفاء لا يد لأحد فيهما ولا ينتجان عن سبب ، ولا يقعان تحت قاعدة . . ثم إن قوله (بعث) يدل على أن الهوية لمحمد ﷺ أنه رسول مبعوث من عند الله إلى الناس كافة .

وقوله تعالى (في الأميين) يدل على أن المبعوث أمي لا يقرأ ولا يكتب ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٨] ثم هذا أيضاً يشير إلى قيمة النجاح والتوفيق ، فلم يبعث محمد ﷺ إلى أمة متحضرة إذاً لهان الأمر ، ولكنه بعث لقوم أجلاف قساة القلوب فألان قلوبهم بالإسلام ، وهذب طباعهم بالقرآن ، وهذا يشير كذلك إلى أن هذا النبي الرسول من هذه الأمة ، فهذه منّة إذ جاءهم من يخاطبهم بلغتهم وبما يفهمون ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [آل عمران : ١٦٤] .

الله هو الذي بعث الرسول ، وهذا يقتضي أنه أوحى إليه أولاً بالنبوة ثم بعثه بالرسالة ، كما تقول (أعتق عبدك عني بألف) أي بعه بألف مني وأعتقه عني ، وكذلك الأمر هنا ، فالنبوة تستمد نورها من الاسم العلم الذي أوحى وهو (الله) .

بينما قوله تعالى (يتلو) يشير إلى أنه بعث إلى الناس بأمر ربّه فقام يتلو ، فالرسالة تستمد نورها من سيد أسماء الصفات (الرحمة) لأن المبعوث

محمداً ﷺ ما بعث للناس إلاّ ليرحمهم الله به ، فبعث بالرحمة وأرسل بالرحمة ، وهو الرّحمة ، رحمة على المؤمنين ، ورحمة على الكافرين ، ورحمة للناس أجمعين من خلق الله ومن سيخلق إلى يوم الدين : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] وصدق الحديث الشريف « أنا محمد وأنا نبي الرحمة » .

وبعد . . .

فالله أحبّ نبيّه فأوحى إليه وجعله نبيّاً اصطفاه واختياراً منه سبحانه ورحم العباد به فأرسله رسولاً إليهم ليصلح منهم ما فسد ويقوّم ما اعوّج وينسخ بشرعه الشرائع الخاصة التي اقتضتها رحمة الله بعباده من قبل يوم كانت البشرية تحبو ، وها هي اليوم اشتد عودها وصلب ، فلم تعد تحتاج إلى شرائع خاصة بأقوام دون غيرهم لينسخ بعضها بعضاً ، بل هي أحوج ما تكون إلى رسالة عامة شاملة تجدّد أمر التوحيد وتؤمن النبوات والرسالات والكتب ، وتبقي ما صلح وتلغي ما لا ينبغي بقاؤه وتوحّد شمل العرب ، وتبني للعالم حضارة إنسانية ، مثالية واقعية راقية ، ما عرف مثلها التاريخ ، وتختم بذلك وصاية السماء على الأرض في التشريع .

وهكذا استندت الرسالة إلى الرحمة من اسم (الرحمن) واستندت النبوة إلى (الحب) فقام أمر محمد ﷺ على الحب نبياً وعلى الرحمة رسولاً وعلى أن الله تعالى هو الذي بعثه اصطفاء وعلى كونه من الأميين معجزة ومنّة وتوفيقا ، وعبّر سبحانه بـ(في) ولم يعبّر بـ(لـ) لأنه لم يبعث للأمين فحسب بل للناس جميعاً ، وإنما بعث بين الأمين ومنهم نبياً أميّاً ، ومعلوم أن نبي الأميين هو خاتم الأنبياء والرسل ، فكان بذلك كما قال تعالى : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب : ٤٠] .

وقوله تعالى (يتلو) يشير فوق كل ما ذكرنا إلى أن وظيفة محمد ﷺ الأساسية هي تبليغ الرسالة ، فهو رسول الله قبل كل شيء ، وكل عظمة من عظماته وهي كثيرة جداً ، إنما هي نابعة من كونه (رسولاً نبياً) ويخطىء خطأ

فادحاً من يظن خلاف ذلك ، فصحيح أن تعالى لا يبعث أحداً من عباده إلاّ إذا كمل فيه العقل ونضج الفكر واتسع القلب وأشرق ، لكنّ هذا محض استعداد لا يكفي ولا يوصل أبداً إلى الرسالة والنبوة قال تعالى : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام : ١٢٤] فالأمر من الأعلى إلى الأدنى وجوباً دون العكس ، وهنا يكمن غلط المستشرقين ومن لفّ لفّهم ممن يروّجون لهذه الفكرة الخاطئة التي تدرس محمداً صلوات الله عليه كما تدرس نيوتن وأرسطو وشكسبير!!..

إذا اتضح ذلك لك فأعلم أن صفة الحب الموفورة في شخص محمد صلوات الله عليه لم تكن اعتباطاً بل على قدر ، فهي صفة عالية اتصف منها محمد صلوات الله عليه بالذروة كما تصف من سائر الكمالات كذلك بذورة الذروة شهد له بذلك الخصوم قبل الأتباع ، وهذا يشير إلى أن محمداً صلوات الله عليه أطهر الناس قلباً وأنبل الناس نفساً وأصدق الناس لهجة وأطيبهم سريرة وأعظمهم نوراً وفي الحقيقة عند العارفين هو النور الذي أشار إليه التنزيل (وسراجاً منيراً) فالحب يقوم بالنور ، والنور هو الكشف الكامل ، ولقد انكشفت الحقائق له صلوات الله عليه انكشافاً لم يتأتّ لأحد من الخلق من قبل ولا من بعد .

أما صفة الرحمة الموفورة كذلك في محمد صلوات الله عليه حتى كان هو الرحمة فإنما قامت ، وقد تكاملت في هذا الرسول الموصوف بالقرآن بأنه ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : ١٢٨] قامت بالعقل ، ومحمد صلوات الله عليه أرجح الناس عقلاً وأبعدهم في الذكاء والنباهة والفطنة غوراً ، وأحدُّهم ذهناً ، وهذا معروف من سيرته وحياته ، والنجاح الذي لقيه والتوفيق الذي اتفق له ، ما لم يتفق لأحد من الأنبياء ، ولا من الرسل ، ولا من الفلاسفة ، ولا من الزعماء ، ولا من الفاتحين في حياته وبعد انتقاله للرفيق الأعلى ، يقول في ذلك القاضي عياض في الشفا ما نصه : (أما أصل فروعها وعنصر ينابيعها ونقطة دائرتها فالعقل الذي ينبعث منه العلم والمعرفة . . . وقد أشرنا إلى مكانه منه صلى الله عليه وسلم وبلوغه منه ومن العلم الغاية القصوى التي لم يبلغها بشر سواه) ، أقول : والعقل يعتمد القوة والأمانة صفتين تكوّنان

المظهر الذي ينفعل عنه العقل ومن المعروف بالبديهة أن أعظم صفة بعد الرسالة والنبوة وقبلها لمحمد صلوات الله عليه كونه (محمد الأمين) وذلك في مرتبة بعد كونه رسول الله ، وصدق الله تعالى منوّهاً : ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾ [القصص : ٢٦] فلئن كان هذا في سيدنا موسى فلأن يكون في محمد صلوات الله عليه وهو أفضل بلا شك من موسى عليه السلام ، أولى . . . ومعلوم أن صفة القوة تقتضي صفة العلم والتعليم فلا أقوى في الإنسان من صفة العلم ، فبالعلم بلغ الإنسان ما بلغ وهو السلطان الذي منحه الله تعالى للعباد .

أشار ربنا إلى ذلك كله بقوله ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [البقرة : ١٢٩] .

أما صفة الأمانة فهي تأتي مع العلم جنباً إلى جنب ، ولا والله لا خير في أمانة بلا قوة ، ولا خير في قوة بلا أمانة ، فهما متكاملان كالشيء وظله والإنسان وروحه لا يكاد أن يفترقان ، فالأمانة تعتمد الصّدق ، وهي الخصلة الرئيسية عند الأخلاقيين إذا وجدت وجدت من بعدها مكارم الأخلاق وإن فقدت فلا أخلاق .

يقول العارف بالله أبو سعيد الخراز (والله لو وجدت إلى الله تعالى طريقاً أقرب من الصدق لولجت منه) .

وعلى هذا فالصدق صفة واجبة لمن توفرت فيه الأمانة ، ومحمد صلوات الله عليه في قنّة الأمانة وفي قمة الصدق ، فهو الصادق الذي شهد له بذلك أعداؤه من قومه (إنّا لم نجرّب عليك كذبا قط) وهو القائل (وإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة) ولقد صدق من قال من العارفين (الولي يسرق ويزني ثم يتوب وكان أمر الله قدراً مقدوراً ولا يصرّ لكنه لا يكذب)[1] . ومن آية المؤمن (إذا حدّث صدق) ومن آية المنافق (إذا حدّث كذب) .

---

(١) الباجوري على الجوهرة ص ١٥٣ .

أولاً : وكل خُلُق سَنِي مبعثه الصدق مبدؤه منه ومنتهاه إليه ، وكل خلق خبيث مبعثه الكذب منه بدأ وإليه يعود .

الصدق مع الله والصدق مع النفس والصدق مع العباد . .

الصدق في الأقوال والصدق في الأفعال والصدق في الأحوال . .

فهل يصدق المسلمون في ذكرى مولد نبيهم عليه الصلاة والسلام كما كان صادقاً صدّيقا ، وهل به في خصلة الصدق يقتدون ؟

أجل لقد علم محمد الدنيا كلّها الصدق ، فهل نسي ذلك أتباعه المسلمون .

أشار ربنا عز وجل إلى ذلك بقوله (ويزكّيهم) .

ولعلّ التنزيل بدأ بالتزكية قبل التعليم ، وذلك عكس ما فعلت ، والحق كل الحق فيما صنع التنزيل ، لأن العرب تبدأ بالأهم فالمهم ، ولما كان الرجل أصلاً في السرقة قال تعالى : ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ ﴾ [المائدة : ٣٨] ولما كانت المرأة أصلاً في الزنى ـ وأقصد الجنس في كلّ ـ قال تعالى : ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي ﴾ [النور : ٢] .

فالتزكية أهم من التعليم ، لأن التزكية نور ينبعث من طريق قلب ملأه الحب إلى قلوب غلف فأنارها وفتحها للحق ، والتعليم قوة منبعثة من طريق العقل السليم والفكر النيّر إلى عقول جاهلية مظلمة فأعطاها قوة جديدة تدرك بها ما لم تكن تدرك من قبل ، وإصلاح القلب مقدّم على إصلاح العقل (إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب) ولا خير في عقل مليء بالأفكار لا يستمد نوره من قلب طاهر سليم .

وثانياً : ما كان مستعدّيا للغير أي مطالب به كل مسلم ، وذلك مثل : الحلم (التسامح) والتواضع والشجاعة والكرم والنجدة (الشهامة) والحزم والوفاء بالوعد ، وصدق الحديث ، وحسن العهد وما إليه .

وصدق الله تعالى إذ يقول : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] .

أما النور المستمد من بحر النبوة فينبثق عنه :

١ـ المعرفة الكاملة ، وما يتفرع مقامات التوبة والزهد والتوكل والمراقبة والصبر والشكر والخوف والرجاء والمحبة .

٢ـ والولاية الكبرى أي كونه صلوات الله عليه سيد الأولياء بعد كونه رسولاً نبيا ، وهذا معنى قول الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي (بحر الولاية أكبر من بحر النبوة) ، أي ولايته ﷺ أساس لنبوته وأصل لها بمعنى السّبق ، فكان وليا قبل كونه نبيا ، لا على عموم القول ، وكل ولاية ومعرفة في الوجود نابعة من ولايته ومعرفته صلوات الله عليه ، أما الفرع الثالث فهو العلم اللدني الذي يشتمل على المغيّبات بتعليم الله عز وجل له وما سيكون وهذا غير علمه ﷺ الغيب الذي نفاه القرآن العزيز فالتنزيل نفى أن يكون عالماً للغيب ولم ينف أن يعلّمه الله فيكون ناطقاً عن الله عز وجل بالغيب ، وهذا العلم اللدني هو الفهم الذي أراده ربنا عز وجل لمن شاء من عباده المصطفين الأخيار ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء : ٧٩] ، ونبيّنا صلوات الله عليه أولى بذلك من سليمان صلوات الله عليه إذ ما من كمال أعطيه نبي ولا رسول ولا عبد من العباد إلاّ أعطي نبينا عليه الصلاة والسلام مثله أو أزيد منه .

وما رزقه صلوات الله عليه من هذه الكمالات والأسرار والأنوار رشح إلى أصحابه منه فَربَّاهم بحاله كما علّمهم بقاله ، فكانت الشريعة أقواله والطريقة القوية أفعاله ، والحقيقة أحواله ، وهذا معنى قوله تعالى كما يبدو ﴿ويزكيهم﴾ .

وإذا أردنا أن ننظر إلى هذه النواحي كلها نجدها متكاملة وحدة يمسك بعضها بحجز بعض ، فما محمد إلاّ الرحمة بأجلى مظاهرها وأبدع أشكالها والحب في أبهى صورة ، ولكن أيّة رحمة وأيّ حبّ ؟!

ليست الرحمة هنا ذلا ولا مهانة ، ولا الحب جنوناً ، وإنما هي الرحمة التي أرادها الخالق لعباده وأحبها لهم وبعث بها محمداً صلوات الله عليه ، تلك

الرحمة التي ينبعث منها كل خير للفرد والجماعة ، ويغلق بها كل شر ، الرحمة التي ربما بترت عضواً من الأعضاء ، لكن ذلك إحياء لبقية الأعضاء ، إنها الرحمة النابعة من العقل المستنير بنور القلب المنبعث عن الحب ، فهي رحمة الحب ، رحمة النور ، رحمة الله الرحمن جلّ جلاله .

وهكذا تجد في التنزيل غالباً كلما وردت بعثة الرسول من أنفسهم جاءت صفته بأنه يزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ومن قبل يتلو عليهم آياته وربما جاء التنزيل بهذا المعنى في قالب آخر وهو مثل قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴾ [الأحزاب : ٤٥ـ٤٦] ، فانظر في نظم الآية وحدّق عين البصيرة تجد كل المعاني التي سبقت ، فالنبي تشير إلى النبوة بدأ بها الآية وختم بقوله (وسراجاً منيراً) بقي هنالك في الآية ما يشير إلى أن كل ما كان قبل محمد صلوات الله عليه من عقائد وعادات هي جاهلية ﴿ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران : ١٦٤] . ﴿ أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة : ٥٠] .

وقد تساءل المرء هنا :

وهل ما جاء به الرسل والأنبياء السابقون جاهليات ؟

والجواب : معاذ الإيمان أن يكون كذلك ، بل ما جاء به هؤلاء الرسل والأنبياء عين ما جاء به محمد صلوات الله عليه من الدين الحق ، ولكن أقوامهم بعد ذلك غيّروا وبدّلوا في معالم الحق الذي جاؤوا به ، زد على ذلك أن محمداً عليه صلوات الله وسلامه جاء بشريعة ناسخة لكل الشرائع السابقة تبعاً لتطور البشرية ونضجها ، حوت محاسن الشرائع السابقة وزادت عليها عناصر البقاء والخلود وما الجاهليات إلا الوثنية التي سيطرت على الاتباع فأضلتهم وأمحت بها معالم الحقيقة التي جاء بها الرسل .

* * *

دوحة الرسالة وما تفرّع عنها

الإسلام الدين الحق شجرة كبيرة (دوحة) .

الرسالة فيه جذرها .

والنبوة جذعها .

والرحمة والحب وما تفرع عنهما أغصانها وأوراقها .

وما نتج من ذلك كله ثمارها .

ودونك التفصيل . . .

إذا انبثق النور عن الحب الذي وقر في قلب سيد المحبين للحضرة الإلهية ألا وهو سيدنا محمد ﷺ ، وانبثقت القوة والأمانة عن الرحمة التي نبعت من عقل سيد العقلاء والمفكرين صلوات الله عليه وسلامه وكل من قلبه وعقله مستمدان من ينبوع الرسالة ومعدن النبوة ، فاعلم أن العلم والتعليم اللذين بعث بهما صاحب الرسالة بقوله « إنما بعثت بالتعلم » يشتملان على كل من الكتاب والحكمة ، فالكتاب علوم الشريعة من المقاصد وما يوصل إليه من الوسائل ، ويشتمل ذلك على الإنذار والتبشير والتفقه وما إليه ، والحكمة أسرار الشريعة ومقاصدها العامة أي ما يسمّى (بفلسفة التشريع) بلغة العصر بالرغم من أن المفسرين اختلفوا في ذلك اختلافاً كبيراً ، وهذا ما أرجحه والله أعلم بمراده .

أما الصدق فيتفرع عنه ما عبر عنه صاحب الرسالة بـ(مكارم الأخلاق) بقوله ﷺ : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » وذلك يشتمل على نوعين من مكارم الأخلاق ، أولاً الشمائل وهي الكمالات المحمدية ومحاسن العادات

الخاصة بذاته الشريفة والاقتداء بها مجرّد فضيلة ، فمن ذلك الحياء والرفق والهيبة وصدق اللهجة ، واعتدال الطبع والمزاج ، وقوة العقل (الفطانة) وسلامة الصدر ، وكمال الرجولة ، وشدة البأس والشاهد هو الخاتم ، وأرسلناك تشير إلى الرسالة ، والمبشر والنذير تشير إلى العلم والتعليم ، وداعياً إلى الله بإذنه تشير إلى الإرشاد بالصدق ومكارم الأخلاق ، وهكذا الشأن في كثير من الآي .

* * *

محمد ﷺ بين الرحمة والحبّ

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

ربما يتساءل المرء في قرارة نفسه ، إذا كان محمد صلوات الله رحمة لأمته والمؤمنين به، فكيف يكون رحمة للكفار والمنافقين والذين لم يؤمنوا بدعوته من الناس ؟ وكيف يكون رحمة للعصاة من الذين طالهم عقاب شريعته ؟ من قصاص وحدّ وتعزير ؟

والجواب أن هذا الأمر لا يتضح حتى تتوضح معالم الرحمة ومعناها الصحيح أولاً ، ذلك لأن من المسلّمات عند العقلاء أن التصديق على الشيء فرع عن تصوّره ، فما لم تتصوّر الرحمة بادىء الأمر لا يظهر معنى رحمته صلوات الله عليه للعالمين .

يظن الكثيرون من الناس أن الرحمة هي التساهل في كل شيء وترك الأمور تسير فوضى دون ضابط ولا زاجر ، وهذا خطأ كبير يقعون فيه نتيجة عن خطئهم في فهم الحرية .

أجل ، إن عمر رضي الله عنه أطلقها صيحة مدوّية في الآفاق باقية على الدهر (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا) .

ولكن معنى الحرية عدم العبودية للبشر ، وليس معنى الحرية أن يفعل الإنسان ما يشاء ، لا ، ثم ألف لا ، . . . ليست الحرية سلباً ولا نهباً ولا سرقة ولا هتكاً للحرمات والأعراض ، لا ثم ألف لا . . .

لقد اختلطت المفاهيم ، واختلّت الموازين ، وفقدت المعايير . . . أجل لقد تشابه البقر علينا . .

وإذا كان الإنسان تنتهي حريته من حيث تبدأ حرية الآخرين ، فكذلك الرحمة .

الرحمة بعباد الله هي فتح الأبواب المغلقة أمامهم كي يدركوا الحق الأبلج فيتبعوه ، ويدركوا الباطل اللجلج فيتركوه . . .

إن بني الإسلام رحم الفرد والجماعة ما لم يرحمهما أحد إلى يومنا هذا في أرق دول الأرض حضارة .

رحم الشعوب والأحم يوم فتح أمامها باب حرية الاعتقاد ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] .

ورحم المجرم والجماعة الإنسانية معاً حين زعم غيره الرحمة للمجرم فظلم الجماعة والمجرم معاً . .

ورحم الغرائز البشرية فلم يكبتها في الإنسان بل وجّهها التوجيه السليم فآتت أكلها . . .

ورحم الضعف الإنساني فلم يشرع من المشقة ما لا يطاق بل جعل المشقة تجلب التيسير ودفع الضرر ورفع الحرج .

ورحم المرأة حين أعلن (إنّ النساء شقائق الرجال) أي في الحقوق والواجبات لا في الطبائع والوظائف التي وظّف الله كلا منهما في ما يليق به .

ورحم الطفل الصغير ، فلقد دخل يوماً على طفل فوجده يبكي فقال (يا أبا عمير ما فعل النُّغير) لطائر كان يلهو به الطفل ، فقال الطفل (مات يا رسول الله) فقال له : (هو في الجنة) ففرح الغلام .

ورحم محمد صلوات الله عليه اليتيم فهو قد نشأ يتيماً « أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنّة » .

ورحم صلوات الله وسلامه عليه المجتمع الإنساني بالعقوبات الرادعة أو ما

يسمّى عند علماء القانون بالمؤيّدات المدنية .

ورحم الناس جميعاً في حياته يوم أنقذهم من ضلال الوثنية إلى هدى التوحيد .

رحم معاصريه بزعامته الفريدة في التاريخ فسعد به من أراد الله له السعادة .

وإذا سخّـــر الإلـــه أنـــاســـاً لسعيـــد فـــإنهـــم سعـــداء

ورحم صلوات الله عليه الناس من بعدهم ، فأتاهم بحضارة رفيعة راقية متكاملة ، كان من بعض نتائجها الحضارة الحديثة اليوم ، ولولا البعثة المحمدية لتأخرت الحضارة الحديثة المعاصرة عشرة قرون .

ورحم محمد صلوات الله عليه قومه المشركين في حياته فما كان الله ليعذبهم وهو فيهم . . إكراماً له صلوات الله عليه ولو أنهم يستحقون أضعافاً مضاعفة من العذاب لأنهم قومه وعشيرته وأولى الناس به وبدعوته .

ورحم محمد صلوات الله عليه الحيوان فنهى عن اتخاذ الدواب كراسيّ وأهدافاً من غير انتفاع حقيقي بها .

ورحم صلوات الله عليه النبات فنهى عن قلع الأشجار والكلأ ولو حالة الحرب لغير غرض صحيح .

ورحم صلوات الله عليه خصومه في الدين فنهى أتباعه عن قتل الرهبان والأحبار الذين لا يقاتلون إنما حشروا أنفسهم في الصوامع إلاّ إذا ظهرت منهم خيانة أو غدر بدليل قاطع لا شبهة فيه .

ورحم الله به الإنس والجن والملائكة وصدق تعالى إذ يقول : ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .

قال لي صاحبي : وهل لرسولنا محمد ﷺ معجزة غير القرآن ؟ وهل يحتاج إلى ذلك ؟ . .

قلت : إنه لا يحتاج هو إلى ذلك ، ولكن الناس من حوله ممن عاصره يحتاجون إلى ذلك .

فمحمد صلوات الله عليه بعث رحمة ، وأولى الناس بالرحمة قومه الذين بعث فيهم ، ومن هؤلاء من سكن البادية أو ابتعد عن المدن فجفا طبعه وغلظ فهمه ، فهو ربما لا يدرك محاسن الشريعة وجمال التنزيل فاحتاج إلى معجزة خارقة للعادة يراها رأي العين حتى يؤمن ، فأجرى الله تعالى رحمة بهؤلاء وأمثالهم تلك المعجزات الصحيحة التي روتها كتب السنّة ، وانطوت بانطواء عصرها ، وبقيت ذكرى ، ولكن المعجزة الكبرى له صلوات الله وسلامه عليه لمعاصريه ولمن بعدهم ، وهي المعجزة الباقية الخالدة (القرآن) وهو كتاب العلم والحضارة والرقي والمدنيّة الصحيحة ومكارم الأخلاق ، وهو النور الذي أنزل معه ﷺ وتحدّى الله تبارك وتعالى به المخلوقات إلى يوم القيامة .

والقرآن رحمة ، وهو هديّة ، هديّة الله إلى عباده ، وحبل الله المتين ، وصراطه المستقيم ، وهو الرحمة العامة الشاملة الباقية ما بقيت السموات والأرض ، وما أصدق من قال :

جاء النبيون بالآيات فانصرمت وجئتنا بحكيم غير منصرم

* * *

من مواقف محمد صلوات الله عليه
في الرحمة والحب

روت كتب الشمائل أنه كان رسول الله صلوات الله عليه وسلامه (من رآه لأول مرة هابه ، ومن عاشره أحبّه) . أجل ، كان الحب غذاء قلبه الشريف ﷺ ونور بصره وبصيرته ، فكان محباً ومحبوباً ، عاش طول حياته ما عاش والحب جوهر رسالته التي طالما دعا الناس إليها ، إلى ذوق سليم رفيع يؤهله لأن يكون صلوات الله عليه محبوباً من أصحابه ومن الناس كلهم تهفو إليه قلوبهم وتطير نحوه أفئدتهم قبل أن تهفو إلى العقيدة والإيمان .

عاش محمد صلوات الله عليه ما عاش بالرفق والرحمة تفيض بهما نفسه الطاهرة كينبوع ثرّ نمير ، يهيمن على ذلك كله عقل حصيف ، وذهن وقّاد ورأى سجيح ، وحنكة مشهودة ، ومعرفة تامة بالعصر وبالرجال . . .

ولقد سئل سيدنا علي رضي الله عنه وكرّم وجهه عن سيدنا عمر رضي الله عنه فقال (كان له عقل يمنعه من أن يُخدع ـ بضم الياء ـ وورع يحجزه عن أن يَخدع ـ بفتح الياء ـ) وهذا لعمري في محمد صلوات الله عليه أتم وأظهر . . .

والحق أن محمداً صلوات الله عليه قد تكاملت فيه مؤهلات الصداقة العُلْويّة الرفيعة من كل جوانبها ، والنظر في هذا النص من الشمائل :

« كان إذا لقيه أحد من أصحابه فقام قام معه ، فلم ينصرف حتى يكون الرجل هو الذي ينصرف عنه ، وإذا لقيه أحد من أصحابه فتناول يده ناوله إياها ، فلم ينزع منه حتى يكون الرجل هو الذي ينزع يده منه ، وكان أرحم

الناس بالصبيان والعيال . . . وإذا قدم من سفر تلقى بصبيان أهل بيته وكان أشد من العذراء في خدرها ، وأصبر الناس على الناس ، يحفظ مغيبهم كما يحفظ محضرهم ويقول الصحبة « من اطلع في كتاب أخيه بغير أمره فكأنما اطّلع في النار » وكان يعطي كل من جلس إليه نصيبه من البشاشة حتى يظن أنه أكرم الناس عليه ﷺ وكان عطوفاً يرام من حوله ويودهم ويدوم لهم على المودة طول حياته (فحسن العهد من الإيمان) » .

وكان هذا عطفه على كل ضعيف قرب منه أو بعد عنه ، فما نهى خادماً ولا ضرب أحداً ، وكان من أضحك الناس وأطيبهم نفساً وأصفاهم سريرة اتسع عطفه للأحياء كافة لمن في عصره ولمن بعد عصره ، لا بل شمل عطفه النبات والجماد فكان يسمي الأشياء فكانت له قصعة اسمها الغراء ومرآة تسمى المدلة ، ومقراض يسمى الجامع ، وقضيب يسمى المشوق وسرج يسمى الداج وبساط يسمى الكز وركوة تسمّى الصادر ، وفي ذلك من معاني الألفة ما فيه مما لا يتذوقه إلاّ المحدثون والملهمون .

قال أنس : (خدمت النبي ﷺ عشر سنين فما قال لي أف قط ، ولا قال لشيء صنعته لم صنعته ، ولا لشيء تركته لم تركته) .

وصدق من قال :

وإذا رحمـــت فـــأنـــت أُمٌ أو أَبٌ هـذان في الـدنيـا همـا الـرحمـاء

أما الغدر فليس له في حياته نصيب أبداً ولا يعرفه ، بل كان أوفى الناس بما عاهد عليه ، فلقد كان خصومه في مكة بمتناول يده يستطيع أن يغدر بهم جميعاً من وراء ظهورهم فهم جيرانه وأهل عشيرته ، ولقي منهم أذى وتكذيباً ما لم ينله نبي من قبل ، وكان أصحابه المهاجرون يأتونه فيقولون له ، أما تنظر المشركين ما يفعلون بنا ، فيبتسم وينظر إليهم بحنان الأب الرحيم وبعقل المرشد العظيم قائلاً بلسان حاله « إني لم أؤمر بقتالهم »[1] ويلتفت إلى آل

---

(١) (إني لم أؤمر بقتالهم) انظر تهذيب سيرة ابن هشام ص ٧٢ وما بعدها .

عمار فيقول « صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنّة »[1] ولعمري هذا هو النصر الحقيقي ، وهذا هو مضاء الرجال .

فالشجاعة كل الشجاعة أن يأمن الناس جانبك حين تسالمهم فإذا أعلنت الحرب عليهم ونبذت إليهم فاستعدوا لك واستعددت للقائهم فدونك حينئذ فلق الهام وضرب الأعناق . . لقد أبطل قاضي المسلمين زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فتح (بيكند) من أعمال بخارى وسمرقند بسبب غدر الجيش الإسلامي بالمدينة وقتال أهلها على حين غرّة منهم وأقر الخليفة الحكم المبرم وأمر الجيش بالخروج حتى يستعد الأعداء الكفار للقتال فيقاتلوهم وجهاً لوجه ، فلما سمع المشركون هذا الحكم دخلوا في الإسلام قاطبة . . .

وما أهون الغدر والخيانة على ذى الخلق الدنيء ولو تجمّل بكل جميل . . .

أما محمد صلوات الله عليه فلقد كان إلى ذلك كله أيضاً متسامحاً مع خصومه وأعدائه تسامح القوى القادر لا الضعيف العاجز ، فلقد أعطى مفاتيح الكعبة لأصحابها من بني شيبة وقال : « اليوم يوم بر ووفاء » فدخل بنو شيبة في الإسلام جميعاً فأبقى معهم سدانة الكعبة إلى يوم القيامة لا يأخذها منهم إلاّ ظالم .

وعفا عن عكرمة بن أبي جهل الذي هرب من وجه محمد ﷺ حتى شفعت له زوجته فجاء النبيّ ﷺ فسلّم عليه فقام له رسول الله ﷺ وعفا عنه وأحسن وفادته وهو لا يزال مشركاً ثم أسلم فأبلى بلاء حسناً في الإسلام .

ولقد وقف يوم الفتح على باب الكعبة ينظر إلى القوم الذين طردوه كل مطرّد وكذبوه وسلّطوا عليه سفاءهم وهم الآن في قبضته لو قطع أعناقهم جميعاً لما عارضه أحد فقال لهم : « ما تظنون أني فاعل فيكم ؟ » قالوا : (خيراً أخ كريم وابن أخ كريم) فقال : « لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لي ولكم اذهبوا فأنتم

---

(١) (صبراً آل ياسر) انظر محمد رسول الله ص ٨٨ لمحمد رضا وتهذيب سيرة ابن هشام ص ٧٢ .

الطلقاء » ، ولم يكتف بذلك بل أعطاهم من غنائم حنين ما أغناهم إلى سابع ولد ووكل الأنصار إلى إيمانهم ، لقد أعطى يومها عطاء من لا يخشى الفقر ، عطاء لا يعطيه إلاّ الأنبياء . . .

* * *

آيات الحب الرفيع في حياة محمد ﷺ

من أحلى ما قاله نبي الحب صلوات الله عليه « الخلق كلهم عيال الله وأحبّهم إلى الله أنفعهم لعياله » .

لقد أحبّ محمد ﷺ بكل قلبه وأشجانه ، ولقد كان صاحب حس مرهف ، ونفس شجية صقلتها الآلام ، لقد أحب أمه فوقف على قبرها وهو ابن الستّين يذرف الدموع وقفة من لا ينسى .

وأحّب أهله ، فها هو الزوج الحبيب ، ومن كان ناجحاً في حياته الزوجية كان ناجحاً في حياته العامة والعكس غالباً صحيح ، وأشهد أن محمداً صلوات الله عليه كان ناجحاً موفّقاً في حياته الزوجية أحسن توفيق . . . ونال من كل بالنصيب الأوفى . . .

وأحبّ أصحابه فكان يقول : « أنا لكم مثل الوالد » ، ولولا حرمة التبني في الإسلام وقرب عهدهم بذلك لكان لهم الوالد . . .

وأحبّ أبا بكر فكان يقول عنه : « لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكن أخوّة الإسلام وصحبته » .

وأحب أضيافه فكان يخدمهم بيده وهنالك من يكفيه ذلك . . وأحب جيرانه فوصلهم وعاد مرضاهم وأحسن إليهم وربما كانوا على غير دينه . . وأحب الناس جميعاً فكان إحسانه عاماً لكل من حوله .

فلا غرو إذا أحبه الناس ، وأحبه أصحابه ، وأحبه أزواجه وأهل بيته ، أحبه الناس الذين يخدمونه ، فزيد بن حارثة اختار أن يبقى مع سيده ومولاه حمد رسول الله ﷺ على أن يرجع إلى أبويه وقد خيّره رسول الله ﷺ . .

ويوم تمدّد بلال رضي الله عنه على فراش الموت كان يقول بأعلى صوته (وافرحاه غداً ألقى الأحبة محمداً وصحبه) .

ويوم قتل أولاد الصحابية كلهم في ميدان القتال جمعت أشلاءهم ووضعتها في (خرج) على دابة ورجعت تحمد الله على أن بلّغهم الشهادة بين يدي رسول الله وهو عنهم راض ، ولما سئلت عن أولادها وما تحمل قالت (أما رسول الله فهو بخير لم يصبه مكروه ، واتخذ الله شهداء) .

بخ بخ لك يا مربية الرجال ، ويا مخرّجة الأبطال .

وهكذا أحبّ من عرف محمداً وعاشره ـ محمداً ﷺ فكان أحب إلى أحدهم من أهله وماله وولده ونفسه التي بين جنبيه .

يقول (مسيوسديو) في كتابه (خلاصة تاريخ العرب) : « أما أخلاق محمد ﷺ وأفعاله فكانت غاية في الكمال منها عفوه عن ألد أعدائه بعد فتح مكة وحلمه بحقوق الحرب بين القبائل ، وعدم استعانته بماله من عظيم السطوة والسلطة على إجابة داعي القوة » .

* * *

شرع الرحمة وفقهها في الإسلام

في الحديث الشريف « من لا يرحم لا يرحم » .

و« الراحمون يرحمهم الرحمن ، عبد الرحمن ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء » .

والرحمة هي الإحسان بعد إقامة الحقوق ، ورعاية الحدود .

الرحمة هي الفضل بعد تحقيق العدل . .

فلا خير في فضل لم يسبقه عدل ، ولا خير في عفو لم تسبقه مقدرة ، ولا خير في سخاء لم يقترن بعزّه . . وصدق من قال :

ولا خيـر فـي حلـم إذا لـم تكـن لـه بـوادر تحمـي صفـوَهُ أن يكـدّرا

لقد كتب الله تعالى الإحسان في كل شيء . . حتى في ذبح الأنعام التي أحلّها الله . . وفي إقامة الحدود ، وتوقيع العقوبات على من يستحق . وأمر الإسلام بالرفق في كل شيء (فما كان الرفق في شيء إلاّ زانه ، ولا نزع من شيء إلاّ شانه) .

وهذه الرحمة التي تظهر بالرفق تارة ، وبالإحسان تارة أخرى هي المعيار الذي توزن به الأمور ، أمور الحياة كلها وتستقيم . . . فإذا نزعت هذه الرحمة من شيء أفسدته فلا يرجى له صلاح بعد ذلك أبداً .

لقد شرع الإسلام بشخص نبيه محمد ﷺ الرحمة فأسسها على العدل وسيّجها بالقوة والأمانة ، وحاطها بالعقل السليم ، وجعل منبعها الحب ، فكانت شجرة مباركة أصلها ثابت في الأرض وفرعها في السماء . . .

وحين يتحقق العدل ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ [النحل : ١٢٦] ، وحين يقدر المرء على استيفاء حقّه واستيعابه يطالبه الإسلام بالأكمل والأفضل والأجمل ، ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور : ٢٢] لا مطالبة إلزام بل مطالبة استحباب وإرشاد ، فأنت حين تستوفي حقك بالعدل لم تبق لك مزية تذكر ، ولا فضيلة تشكر ، ولا منة على الغير فتحفظ ، فإذا أخذت بالفضل كنت عند الله والناس من الذين رحموا أهل البلاء ، فاستحقوا أن يرحمهم الله تعالى وعباده الصالحون . .

هذا كله فيما يخص الحق الخاص بالعبد ، أما إذا تعدّى الذنب إلى الجماعة فيبقى الخق العام ، وهو ما لا يد للعبد إليه .

ولقد صدق الله تعالى إذ يقول : ﴿ ۞ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ [النحل : ٩٠] .

فقدّم العدل لأنه الأساس والأهم الذي يبدأ به على الإحسان ، وبناء لا أساس له جدير أن يهوي بمن فيه . . . وبين يديّ الآن وصية لسيّد هذه الأمة بعد نبيّها ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه يوصي بها جيش أسامة أول جيش أنفذه بعد توليه الخلافة قال :

(يا أيها الناس قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عني ، لا تخونوا ، ولا تغلّوا ، ولا غدروا ، ولا تمثّلوا ، ولا تقتلوا طفلاً ، ولا شيخاً كبيراً ، ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلاً ، ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلاّ لمأكله ، وسوف تمرون بأقوام قد فرّغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرّغوا أنفسهم له) . . .

هذا والله هو الرحمة بأجلى مظاهرها ، الرحمة القائمة على الفضل بعد العدل ، والأمانة بعد القوة ، والعفو والتسامح عند المقدرة ، لهذا كان أبو بكر أرحم هذه الأمة بالأمة ، ولهذا استحق أن يكون خليفة سيّد الرحماء محمد ﷺ ، ولا غرو أن يكون في رحمته هذه أقوى إنسان بالحق الذي معه بعد

رسول الله ﷺ وآمن إنسان عليه بعد صاحب الرسالة .

وصدق الله تعالى : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾ [الفتح : ٢٩] .

هذا غيض من فيض ، وقليل من كثير ، وإن مع اليوم غدا ، ومع العسر يسرا ، ولا يحيط بهذه البحث حديث في صفحات ، ولعلّ قادمات الأيام تفسح للكلام في هذه الجوانب المضيئة من حياة سيّد البشر صلوات الله عليه ومقوّمات عظمته بما ينير الدرب ويشحذ الهمم ويفتح باب الاقتداء .

* * *

الفصل الثاني

مشاعل مشاعل مشاعل

إنّه ليس بملك..

إنها النّبوة...

قال الراوي[1] :

كان عدي[2] بن حاتم يقول فيما بلغني : (ما رجل من العرب كان أشدّ كراهة لرسول الله ﷺ حين سمع به مني ، فكنت امرءاً شريفاً ، وكنت نصرانياً ،

---

(١) الراوي : ابن إسحق .

(٢) عديّ بن حاتم : (٦٨ هـ ـ ٦٨٧ م) : عدي بن حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج الطائي ، أبو وهب وأبو طريف ، أمير ، صحابي من الأجواد الأمراء ، كان رئيس طيء في الجاهلية والإسلام ، وقام في حرب الردة بأعمال كبيرة ، وكان إسلامه سنة /٩/ هـ وشهد فتح العراق ، ثم سكن الكوفة وشهد الجمل وصفين والنهروان مع علي رضي الله عنه وكرّم وجهه ، وفقئت عينه يوم صفين ، وتوفي بالكوفة ، روى عنه المحدّثون ٦٦ حديثاً ، عاش أكثر من مئة سنة ، وهو ابن حاتم الطائي الذي يضرب بجوده المثل .

الإصابة وسير أعلام النبلاء وحسن الصحبة وكشف النقاب ـ خ ـ وخزانة الآداب للبغدادي ١/ ١٣٩ والروض الأنف ٢/ ٣٤٣ وامتاع الأسماع ١/ ٥٠٩ ورغبة الأمل ٦/ ١٣٥ والأعلام ج ٤/ ٢٢٠ .

وكنت أسير في قومي بالمرباع[1] ، وكنت في نفسي على دين ، وكنت ملكاً في قومي لما كان يصنع بي) . . .

فلّما سمعت برسول الله ﷺ كرهته ، فقلت لغلام لي عربي وكان راعياً لإبلي :

ـ لا أبا لك . . أعدد لي من إبلي أجمالاً ذللا سمانا ، فاحتبسها قريبا قريبا مني ، فإذا سمعت بجيش لمحمد قد وطيء هذه البلاد فآذنّي . . .

ففعل .

ثم إنه أتاني ذات غداة فقال :

ـ يا عديّ : ما كنت صانعا إذا غشيتك خيل محمد فاصنعه الآن ، فإني رأيت رايات ، فسألت عنها ، فقالوا : هذه جيوش محمد . . .

قال : قلت : فقّرب إليّ أجمالي . . .

فقرّبها ، فاحتملت بأهلي وولدي ، ثم قلت : ألحق بأهل ديني من النصارى بالشام ، فسلكت الحوشيّة ، وخلّفت بنتا[2] لحاتم في الحاضر ، فلّما قدمت الشام أقمت بها ، وتخالفني خيل رسول الله ﷺ وأنا بعقرب ، فتصيّبت ابنه حاتم فيمن أصابت ، فقدم بها على رسول الله ﷺ في سبايا من طيء ، وقد بلغ رسول الله ﷺ هربي إلى الشام قال : فجعلت ابنة حاتم في حظيرة بباب المسجد ، كانت السبايا تحبس بها ، فمرّ رسول الله ﷺ ، فقامت إليه ، وكانت امرأة جزلة فقالت :

ـ يا رسول الله : هلك الوالد ، وغاب الوافد ، فامنن عليّ ، منّ الله عليك .

قال : ومن وافدك ؟

---

(١) المرباع : هو ما يأخذ رئيس القوم هو ما يأخذ رئيس القوم من ربع أموال قومه .
(٢) وفي رواية : عمتي وناسا أي أختا لحاتم .

قالت : عديّ بن حاتم . .

قال : الفارّ من الله ورسوله ؟!

قالت : فمنّ عليّ . .

قالت : ثم قضى . . وتركني حتى إذا كان الغد مرّ بي ، فقلت له مثل ذلك ، وقال لي مثل ما قال بالأمس .

قالت : حتى إذا كان بعد الغد مرّ بي ، وقد يئست ، فأشار إليّ رجل خلفه : أن قومي فكلّميه[1] . .

قالت : فقمتُ إليه فقلت : (يا رسول الله ، هلك الوالد ، وغاب الوافد فامنن عليّ منّ الله عليك) .

فقال ﷺ : قد فعلت ، فلا تعجلي بخروج حتى تجدي من قومك من يكون لك ثقة حتى يبلغك إلى بلادك ، ثم آذنيني .

قالت : فسألت عن الرجل الذي أشار إليّ أن كلّميه ، فقيل لي : علي بن أبي طالب .

قالت : فقمت حتى قدم من بلي أو قضاعة .

قالت : وإنما أريد أن آتي أخي بالشام ، فجئت فقلت :

. . يا رسول الله قد قدم رهط من قومي لي فيهم ثقة وبلاغ .

وقالت : فكساني وحمّلني وأعطاني نفقة ، فخرجت معهم حتى قدمت الشام .

* * *

قال عديّ :

فوالله إني لقاعد مع أهلي فنظرت إلى ظعينة تصوّب إلى قومنا .

---

(١) وفي رواية : سليه حملانا ، قالت فسألته فأمر لها .

قال : فقلت : ابنة حاتم ؟

قال : فإذا هي هي . .

فلمّا وقفت عليّ استهلّت تقول :

. . القاطع الظالم : احتملت بأهلك وولدك ، وتركت بقية والدك عورتك ؟!

لقد فعلت فعلة ما كان أبوك يفعلها . . . !!

قال : قلت :

أي أخيّة : لا تقولي إلاّ خيراً ، فوالله مالي من عذر ، لقد صنعت ما ذكرت . . .

قال : ثم نزلت فأقامت عندي . . .

* * *

فقلت لها : وكانت امرأة حازمة . .

. . ماذا ترين من أمر هذا الرجل ؟

قالت : أرى والله أن تلحق به سريعاً ، فإن يكن الرجل نبياً فللسابق إليه فضله ، وإن يكن ملكاً فلن تزل في عزّ اليمن ، وأنت أنت ، ثم قالت (إيتهِ راغباً أو راهباً ، فقد أتاه فلان فأصاب منه وأتاه فلان فأصاب منه) .

قال : قلت : والله إنّ هذا الرأي . .

قال : فخرجت حتى أقدم على رسول الله ﷺ المدينة فدخلت عليه وهو في مسجده ، فسلّمت عليه . . فإذا عنده امرأة وصبيان أو صبي فذكر قربهم منه ، فعرفت أنه ليس ملك كسرى ولا قيصر . .

* * *

فقال : . . من الرجل ؟

فقلت : عديّ بن حاتم . . . فقال له رسول الله صلوات الله عليه :

« يا عدي بن حاتم : ما أخّرك ؟ أخّرك أن يقال لا إله إلا الله ؟ فهل من إله إلا الله ؟ ما أخرك ؟ أخرك أن يقال : الله أكبر ؟ فهل شيء هو أكبر من الله عز وجل ؟

قال : فقام رسول الله ﷺ ، وانطلق بي إلى بيته فوالله إنه لعامد بي إليه إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة فاستوقفته فوقف لها طويلاً تكلّمه في حاجتها . .

قال : قلت في نفسي : والله ما هذا بملك . . .

قال : ثم مضى بي رسول الله ﷺ حتى إذا دخل بيته تناول وسادة من أدم محشوة ليفاً فقذفها إليّ ، فقال :

. . . اجلس على هذه . .

قال : قلت : بل أنت فاجلس عليها .

قال : بل أنت . .

فجلست ، وجلس رسول الله ﷺ بالأرض .

قال : قلت في نفسي : والله ما هذا بأمر ملك . .

ثم قال : ايه يا عديّ . . ألم تك ركوسيّا ؟ ؟!

قال : قلت : بلى . . .

قال : أو لم تكن تسير في قومك بالمرباع ؟

قال : قلت بلى .

قال : فإنّ ذلك لم يكن يحلّ لك في دينك ؟!

قال : قلت : أجل والله . . .

قال : وعرفت أنه نبيّ مرسل يعلم ما يجهل . . .

* * *

ثم قال : ﷺ :

لعلّك يا عديّ إنما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترة من حاجتهم فوالله ليوشكنّ المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه .

ولعلّك إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوّهم وقلة عددهم فوالله ليوشكنّ أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف .

ولعلّك إنما يمنعك من دخول فيه أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم ، وايم الله ليوشكنّ أن تسمع بالقصور من أرض بابل قد فتحت عليهم . . .

قال : عدي : فأسلمت . .

قال : فرأيت وجهه استبشر .

* * *

فكان عدي يقول : مضت اثنتان وبقيت الثالثة ، والله لتكوننّ ، وقد رأيت القصور البيض من أرض بابل قد فتحت ، ورأيت المرأة تخرج من القادسية على بعيرها لا تخاف حتى تحج هذا البيت ، وايم الله لتكوننّ الثالثة ليفيض المال حتى لا يوجد من يأخذه[1] .

* * *

(١) ورد ذكر قصة سيدنا عدي بن حاتم رضي الله عنه في البداية والنهاية بعدة روايات منها رواية ابن إسحق وأثبتها في البداية والنهاية الحافظ ابن كثير ولها شواهد من وجوه أخر .منها رواية الإمام أحمد وغيره ، قلت وقد مزجت هذه الروايات كلها سبكا للقصة وأخذا لها بالأحوط وانظر البداية والنهاية للحافظ ابن كثير ٥ /ص/ ٦٤ وما بعدها .

صاحب الدعوة المجابة

قال مالك بن دينار[1] رحمه الله تعالى :

احتبس عنا المطر بالبصرة ، فخرجنا نستسقي مراراً ، فلم نر للإجابة أثراً فخرجت أنا وعطاء السّلمي وثابت البنانيّ ويحيى البكّاء ومحمد بن واسع ، وأبو محمد السّختياني وحبيب الفارسي وحسان بن ثابت بن أبي سنان ، وعتبة الغلام ، وصالح المزني ، حتى إذا صرنا إلى المصلّى بالبصرة ، خرج الصبيان من المكاتب ، ثم استسقينا فلم نر للإجابة أثراً ، حتى إذا انتصف النهار ، وانصرف الناس ، وبقيت أنا وثابت البنانيّ بالمصلّى ، فلمّا أظلم الليل ، إذا أنا بعبد أسود مليح رقيق الساقين ، عليه جبة صوف ، قوّمت ما عليه بدرهمين ، فجاء بماء فتوضأ ، ثم جاء إلى المحراب فصلّى ركعتين خفيفتين ، ثم رفع طرفه إلى السماء وقال :

. . . إلهي وسيّدي ومولاي . . إلى كم تردّ عبادك فيما لا ينقص من خزائنك ؟ أنفد ما عندك ؟ أم نقص ما في خزانتك ؟! . . أقسمت عليك بحبّك لي إلاّ ما أسقيتنا الساعة . . .

قال : فما تم كلامه حتى تغيّمت السماء وجاءت بمطر كأفواه القرب . . .

* * *

---

(١) مالك بن دينار : (ت ١٣١ هـ ـ ٧٤٨ م) مالك بن دينار البصري أبو يحيى ، من رواة الحديث ، كان ورعاً يأكل من كسبه ويكتب المصاحف بالأجرة ، توفي في البصرة . انظر وفيات الأعيان وحلية الأولياء ، وتهذيب التهذيب ، والأعلام ج /٥/ ص/ ٢٦٠/ وما بعدها .

قال مالك بن دينار :

فتعرّضت له ، وقلت له : . . . يا أسود . . . أما تستحي مما قلت ؟

قال : وما قلت ؟

قلت قولك (بحبك لي) ، وما يدريك أنه يحبك ؟

قال : تنحّ عني يا من اشتغل عنه بنفسه ، أفتراه بدأني بذلك إلاّ لمحبته إياي ؟!

ثم قال : . . محبته لي على قدره ، ومحبتي له على قدري . . .

فقلت له : يرحمك الله : أرفق قليلاً .

فقال : إني مملوك ، وعليّ فرض من طاعة مالكي الصغير . .

* * *

قال : فانصرف ، وجعلنا نقفو أثره على البعد حتى دخل دار نخّاس فلما أصبحنا أتينا النخّاس .

فقلت : . . . يرحمك الله ، عندك غلام تبيعه منّا للخدمة ؟

قال : نعم ، عندي مائة غلام للبيع .

فجعل يعرض علينا غلاماً بعد غلام حتى عرض علينا سبعين غلاماً ، فلم أَلق حبيبي فيهم .

فلما أردنا الخروج من عنده ، دخلنا حجرة خربة خلف داره ، وإذا بالأسود قائم يصلي . .

فقلت : . . . حبيبي ، وربّ الكعبة . . .

فجئت النخاس ، فقلت له :

بعني هذا الغلام . . .

فقال : يا أبا يحيى ، هذا الغلام ليست له همة في الليل إلاّ البكاء ، وفي النهار إلاّ الخلوة والوحدة .

فقلت له : لا بد من أخذه منك . . . ولك الثمن ، وما عليك منه ؟!

فدعاه ، فجاء وهو يتناعس . . .

فقال : خذه بما شئت بعد أن تبرئني من عيوبه كلّها . . .

قال مالك : فاشتريته منه بعشرين ديناراً . . .

* * *

وقلت له : ما اسمك ؟

قال : ميمون . . .

فأخذت بيده أريد المنزل ، فالتفت إليّ ، وقال :

. . . يا مولاي الصغير ، لماذا اشتريتني ؟ وأنا لا أصلح لخدمة المخلوقين .

فقلت له :

. . . والله يا سيدي ، إنما اشتريتك لأخدمك بنفسي . . .

قال : ولم ذلك ؟

فقلت :

. . . ألست صاحبنا البارحة بالمصلّى ؟!

قال : بلى . . . ولقد اطّلعت على ذلك ؟!

قلت : نعم . . وأنا الذي عارضتك البارحة في الكلام بالمصلّى .

قال : فجعل يمشي حتى أتى إلى المسجد ، فاستأذنني ، ودخل المسجد فصلّى فيه ركعتين خفيفتين ، ثم رفع طرفه إلى السماء ، وقال :

. . . إلهي ، وسيّدي ، ومولاي ، سرّ كان بيني وبينك أطلعت عليه

غيرك ؟ فكيف يطيب الآن عيشي ؟ أقسمت عليك بك إلاّ ما قبضتني إليك الساعة . . .

قال : ثم سجد ، فانتظرته ساعة فلم يرفع رأسه ، فجئت إليه وحرّكته فإذا هو مات . . .

قال : فمددت يديه ورجليه ، فإذا هو ضاحك مستبشر ، وقد غلب البياض على السواد ، ووجهه كالقمر ليلة البدر وإذا شاب قد دخل من الباب ، وقال :

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . . . أعظم الله أجورنا وأجوركم في أخينا ميمون . . . ، هاكم الكفن . . .

فناولني ثوبين ما رأيت مثلهما قط ، فغسّلناه وكفنّاه فيهما ودفناه رحمة الله تعالى عليه[1] .

* * *

(١) انظر هذه القصة في كتاب إحياء علوم الدين لحجة الإسلام أبي حامد الغزالي رحمه الله تعالى .

أستاذ الملوك

حدّث الشيخ محي الدين بن عربي الحاتمي[1] عن نفسه قال :

. . كانت لي كلمة مسموعة عند الملك الظاهر صاحب مدينة حلب ابن الملك الناصر لدين الله صلاح الدين يوسف بن أيوب ، فرفعت إليه من حوائج الناس في مجلس واحد مائة وثمان عشر حاجة فقضاها كلها . . .

وكان منها أني كلمته في رجل أظهر سره وقدح في ملكه ، وكان من جملة بطانته ، وعزم على قتله ، فلما كلمته في شأنه أطرق ، وقال :

---

(١) ابن عربي (٥٦٠ـ٦٣٨ هـ) (١١٦٥ـ١٢٤٠م) : الشيخ محي الدين ابن عربي الحاتمي الطائي هو : محمد بن علي بن محمد ابن عربي ، أبو بكر الحاتمي الطائي الأندلسي ، المعروف بمحي الدين بن عربي الملقب بالشيخ الأكبر ، صوفي من كبار أئمة المدرسة الإشراقية الإسلامية متكلم في كل علم ، شاعر ، أديب ، ولد في مرسية بالأندلس ، وانتقل إلى إشبيلية وقام برحلة فزار الشام وبلاد الروم والعراق والحجاز ، واستقر في دمشق فتوفي فيها ، له نحو أربعمائة كتاب ورسالة ، منها (الفتوحات المكية) أربع مجلدات ، و(فصوص الحكم) و(محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار) وغيرها كثير ، وانظر أسماء مؤلفاته في مجلة المجمع العلمي العربي ٣٠ : ٣٦٨ ، ٣٩٥ .

انظر فوات الوفيات وجذوة الاقتباس ومفتاح السعادة وميزان الاعتدال وعنوان الاعتدال وعنوان الدراية ولسان الميزان وجامع كرامات الأولياء ونفح الطيب وشذرات الذهب ، والتكملة لوفيات النقلة وذيل الروضتين والرحلة العياشية ، ومرآة الجنان ، ومعجم المطبوعات والتكملة لابن الأباء : Br,OCK.1:571(441) S.1:190 والأعلام ٦/ ٢٨١ وما بعدها .

حتى أعرّف المولى ذنب هذا المذكور وأنه من الذنوب التي لا تتجاوز عنها الملوك ، فقلت له :

. . . يا هذا تخيّلت أن لك همة الملوك وأنك سلطان ؟ والله ما أعلم في العالم ذنباً يقاوم عفوى ، وأنا واحد من رعيتك ، وكيف يقاوم ذنب رجل عفوك في غير حد من حدود الله ؟ . . . إنك لدنيء الهمة . . .

فخجل وسرّحه وعفا عنه ، وقال لي :

جزاك الله خيراً من جليس ، مثلك من يجالس الملوك . . .

وبعد ذلك المجلس ، ما رفعت إليه حاجة إلاّ سارع إلى قضائها من غير توقف كانت ما كانت .

* * *

وإنه لموقف عظيم من رجل عظيم لدى ملك عظيم ، يدل على مكانة الشيخ محي الدين عند الملك الناصر[1] ، حتى أنه ليلقّبه بالمولى ، وهو لقب لكبار العلماء آنئذ ، ويرمي الشيخ في وجهه بأعنف كلمة توجّه إلى ملك ، فيصفه بنقص السلمة ، ولا يغضب الملك بل يخجل ، ثم يعفو عن الذنب الذي رفعه الشيخ إليه شافعاً ، وهو من الذنوب التي لا تعفو عنها الملوك ولا عن أمثالها لاتصالها بالحكم وبشخص الحاكم من أحد أفراد الحاشية ، ثم يقول : (جزاك الله خيراً فمثلك من يجالس الملوك)[2] .

بهذا الخلق ، وبهؤلاء العلماء ، وبهذا الطراز من الحكام ، هزم هؤلاء الملوك أوربا مجتمعة متكاتفة في ساحات الشام وميادينه ، كيف لا وهو ابن

---

(١) السلطان الغالب بأمر الله .

(٢) انظر كتاب مسامرة الأخيار للشيخ ابن عربي الحاتمي .

الفاتح الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب الذي دوّخ ملوك الصليبيين وطردهم من القدس ومن بلاد الشام .

* * *

ويكتب الشيخ محي الدين رسالة إلى السلطان الغالب بأمر الله صاحب بلاد الروم راداً على خطاب أرسله إليه سنة تسع وستمائة (٦٠٩ هـ) .

(بسم الله الرحمن الرحيم ، وصل الاهتمام السلطاني الغالب بأمر الله ، أدام الله عدل سلطانه إلى والده الداعي له محمد بن العربي ، فتعيّن عليه الجواب بالوصية الدينية والنصيحة السياسية الإلهية على قدر ما يعطيه الوقت ويحتمله الكتاب إلى أن يقدّر الاجتماع ويرتفع الحجاب . . . إلى أن قال :

. . . فاحذر أن أراك غداً بين أئمة المسلمين من أخسر الناس أعمالاً الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، ولا يكون شكرك لما أنعم الله به عليك من استواء ملكك بكفران النعم ، وإظهار المعاصي وتسليط النوّاب السُّوء بقوة سلطانك على الرعية الضعيفة ، فإن الله أقوى منك فيحتكمون فيهم بالجهالة والأغراض وأنت المسؤول عن ذلك ، فيا هذا قد أحسن الله إليك فأنصف المظلوم من الظالم ، ولا يغرنّك أن الله وسّع عليك سلطانك وسوّى البلاد لك ومهّدها مع إقامتك على المخالفة والجور ، وتعدّى الحدود ، فإنّ ذلك الاتّساع مع بقائك على مثل هذه الصفات بإمهال من الحق لا اهمال وما بينك وبين أن تقف بأعمالك إلاّ بلوغ الأجل المسمّى ، وتصل إلى الدار التي سافر إليها آباؤك وأجدادك .

. . . يا هذا . . .

وأشد ما يمر الإسلام والمسلمين ، وقليل ماهم ، رفع النواميس والتظاهر بالكفر وإعلاء كلمة الشرك . . .

فتدبّر كتابي ترشد إن شاء الله ما لزمت العمل به والسلام) .

قلت : هذه لغة العلماء إلى الملوك ، العلماء بالله عز وجل .

* * *

ويري لنا الشيخ رحمه الله تعالى أنه كان يسير في رفقة من أصحاب رجال العلم والتقوى ، فنظر فرأى الخليفة قادماً ، فقال لأصحابه :

. . من بدأه منكم بالسلام أوقعت به لديه ، فإنّ السنّة أن يسلّم الراكب على المترجّل ، وما تعوّد الخليفة ذلك . . .

ووصل الخليفة إليهم فلم يلقوا إليه بالسلام ، فتعجّب ، ولكنه نظر فرأى الشيخ محي الدين فعرف . . .

فألوى بزمام دابته فقال :

. . السلام عليكم ورحمة الله . .

فقالوا : وعليكم السلام ورحمته وبركاته .

وتبسّم الخليفة وقال :

رحمكم الله ، لقد أحييتم سنّة محمدية كريمة ، وعلّمتموني واجباً .

* * *

قال المجد الفيروزآبادي صاحب القاموس : ـ وهو من المنتقدين له ـ لقد رأيته إجازة بخطّ الشيخ[1] كتبها للملك المعظّم[2] صاحب حلب ، ورأيت في آخرها : (وأجزت له أيضاً أن يروي عني كتبي وجميع مؤلّفاتي ، ومن جملتها

---

(١) أي الشيخ محي الدين بن عربي رحمه الله تعالى ، والفيروزآبادي : محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن عمر، من أئمة اللغة والأدب، (ت ٨١٧ هـ = ١٤١٥ م)

(٢) الملك المعظّم : (ت ٦٥٨ هـ = ١٢٦٠ م) تورانشاه (المعظم) ابن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، تفقه وتلقى الحديث في دمشق، وحدَّث، توفي بحلب [الأعلام ٢/ ٩٠] .

كذا وكذا ، حتى عدّ نيفاً وأربعمائة مؤلّف ، منها التفسير الكبير الذي وصل فيه إلى قوله تعالى : ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف : ٦٥] .

قلت : وتلك الوثيقة التاريخية يرويها المجد الفيروزآبادي تدل على تلمذة الملوك للشيخ وحرصهم على اقتناء كتبه ومؤلّفاته التي أربت على أربعمائة مؤلف .

* * *

وبعد . .

فيقول الشيخ محي الدين :

(إيّاك وصحبة الملوك ، إلاّ أن تكون مسموع الكلمة عندهم فتنفع مسلماً ، أو تدفع عن مظلوم ، أو تردّ سلطان من فعل ما يؤدي إلى الشقاء عند الله . . .) .

* * *

أمير البصرة
رجل عطّر الله اسمه في السماء

يقول بشر بن الحارث المشهور بالحافي[1] رحمه الله تعالى :

. . لا يجد حلاوة الآخرة رجل يحب أن يعرفه الناس . .

كان بشر رحمه الله ورضي عنه خير نموذج للنفس الروحانية الملكية ، تلك التي اطمأنت بالتربية ، وصقلت بالمجاهدة حتى أصبحت نوراً تشع على من حولها إشعاعاً إيمانياً ربانياً ساطعاً .

ولقد كانت جنازته رحمه الله يوماً خالداً من يام الدنيا جعله الله حجة على عباده ، وسراً من أسرار السماء ، ومعلماً من معالم التاريخ .

* * *

ولقد كان رحمه الله قرآناً ناطقاً . . فلا شهوة تأسره ، ولا رغبة خفية ولا ظاهرة تستعبده ، فرغ من الدنيا والجاه والخلق ، وأقبل على الله بكلّيته فأقبل الله عليه ، وحبّب فيه الخلائق ، حتى أن المأمون استشفع بأحمد بن

---

(١) بشر الحافي (١٥٠ـ٢٢٧ هـ) (٧٦٧ـ٨٤١ م) : بشر بن الحارث بن علي بن عبد الرحمن المروزي ، أبو نصر ، المعروف بالحافي ، من كبار الصالحين له في الزهد والورع أخبار وهو من ثقات رجال الحديث ، من أهل مرو ، سكن بغداد وتوفي فيها .

روضات الجنات : ١/ ١٢٣ . وطبقات الصوفية ، ووفيات الأعيان : ١/ ٩٠ ، وتاريخ بغداد ٧/ ٦٧ـ٨٠ ، وابن عساكر : ٣/ ٢٢٨ ، وصفة الصفوة : ٢/ ١٨٣ ، وحلية الأولياء : ٨/ ٣٣٦ وطبقات الشعراني : ١/ ٦٢ ، والأعلام : ٢/ ٥٤ .

حنبل في أن يأذن بشر الحافي للمأمون في زيارته فأبى بشر . . . !!

وكان رحمه الله من الورع إلى جانب عظيم ، ومن المعرفة على خط أوفر فكان مما قاله رحمه الله ورضي عنه : . . . إني لأشتهي الشواء منذ أربعين سنة فما صفا لي ثمنه . .

وقيل له : بأي شيء تأكل الخبز ؟ فقال :

اذكر العافية فأجعلها إداماً .

ويروى أن ذوي محمد بن المنكدر أخيه في الله جاؤوا بشراً يقولون : انظر أخاك محمد بن المنكدر يبكي منذ أيام لا يرقأ له دمع . . . فذهب إليه فقال له :

ممّ تبكي يا أخي ؟ قال : قرأت قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ [مريم : ٧١] فذكر الورود ولم يذكر الصدور فهل أنا ممن يصدر ؟ فلهذا بكيت ، فبكى بشر أكثر منه ، فقالوا : جئنا بك تسكته فبكيت أكثر منه!!

وقال بشر رحمه الله : لا يحتمل الحلال السرف

وأكثر من الصوم ، فرؤي في المنام بعد وفاته ، فقيل له :

ـ ما فعل الله بك ؟

ـ فقال : غفر لي ، وقال :

كل يا من لا يأكل ، واشرب يا من لا يشرب .

وقال : رأيت النَّبي ﷺ في المنام فقال لي : « يا بشر أتدري لم رفعك الله من بين أقرانك »

قلت : لا يا رسول الله . .

قال : باتّباعك لسنتي وخدمتك للصالحين ، ونصيحتك لإخوانك ومحبتك لأصحابي وأهل بيتي ، هو الذي بلّغك منازل الأبرار .

* * *

هذه النّفس المطمئنة في حقيقتها شرح عملي لأسرار الألوهية هي حقيقة اليقين ، تمثلت للناس بصورة بشر ، ولكأنّ الجنة بنعيمها وصورها ازّينت وهبطت إلى الدنيا تعرض نفسها لمن يشتريها بنفسه فأخذها بشر من بين الناس ، وهم لا يبصرونها ، بل يمرون بها كما تمر الحمير بقصر الملك ، ولو سئلت لفضّلت عليه الاصطبل الذي هي فيه .

قال الراوي :

وكانت بداية أمر بشر الحافي رحمه الله أنه كان يقول وقد سئل :

ما بداية أمرك لأن اسمك بين الناس أنه اسم نبي ، قال :

هذا من فضل الله ، وما أقول لكم ؟!

كنت رجلاً عيّارا[1] صاحب عصبة ، فجزت يوماً أنا بقرطاس في الطريق فرفعته فإذا فيه : (بسم الله الرحمن الرحيم) .

فمسحته وجعلته في جيبي ، وكان عندي درهمان ، ما كنت أملك غيرهما ، فذهبت إلى العطارين فاشتريت بهما غالية (طيباً) ومسحته في القرطاس ، ثم وضعته في ذروة رابية ، فنمت تلك الليلة فرأيت في المنام كأن قائلاً يقول لي :

يا بشر بن الحارث ، رفعت اسمنا عن الطريق وطيّبته ، لأطيّبنّ اسمك في الدنيا والآخرة ، ثم كان ما كان . . . قال ، فكنت آنئذ حافياً فكرهت أن ألبس بعدها نعلاً .

قال أحد أصحاب بشر سفيان بن محمد المصيصي :

رأيت بشر بن الحارث في النوم فقلت له : ما فعل الله بك ؟

قال : غفر لي وأباح لي نصف الجنة ، وقال لي : يا بشر لو سجدت على

---

(١) قيل وكان بشر بن الحارث في أول أمره أميراً للبصرة من أمراء السوء فتاب إلى الله وتيقظ وترك الإمارة .

الجمر ماأدّيت شكر ما جعلت لك في قلوب عبادي . . .

* * *

وجاءت أخت[1] بشر يوماً الإمام أحمد بن حنبل فقالت :

إنّا قوم نغزل بالليل ، ومعاشنا منه ، وربما تمرّ بنا مشاعل بني طاهر ولاة بغداد ونحن على السطح نغزل في ضوئها الطاقة والطاقتين أفتحله لنا أم تحرمه ؟

فقال لها :

من أنت ؟

قالت : أخت بشر . . .

فقال : آه يا آل بشر ، لا عدمتكم ، لا أزال أسمع الورع الصافي من قلبكم .

* * *

ومن أخبار بشر ما حدّث به أحد تجار بغداد ممن كان يقع في القوم ويسخطهم قال : وقد سئل : أليس كنت تبغضهم ؟ فقال : ليس الأمر على ما توهمت ، فقيل له : كيف ؟ قال : . . . صليت الجمعة يوماً وخرجت فرأيت بشر بن الحارث الحافي يخرج من المسجد مسرعاً ، قال : فقلت في نفسي انظر إلى هذا الرجل الموصوف بالزهد ليس يستقر في المسجد ، قال : فتركت حاجتي فقلت : أنظر أين يذهب ، قال فتبعته فرأيته تقدّم إلى الخباز واشترى بدرهم خبزاً ، قال فتقدّم إلى الشّعراء فأعطاه درهماً وأخذ الشّعراء ، قال فزادني عليه غيظاً ، قال : وتقدم إلى الحلاوى واشترى فالوذجاً بدرهم ، فقلت في نفسي ، والله لانغّصنّ عليه حين يجلس ويأكل . . .

---

(١) ويروى أنها بنته وليست أخته .

فخرج إلى الصحراء وأنا أقول : يريد الخضرة والماء ، قال فما زال يمشي إلى العصر وأنا خلفه ، قال ، فدخل قرية ، وفي القرية مسجد وفيه رجل مريض قال فجلس عند رأسه وجعل يلقمه ، قال : فقمت لأنظر إلى القرية ، قال فبقيت ساعة ثم رجعت ، فقلت للعليل : أين بشر ؟

قال : ذهب إلى بغداد . . .

قال : فقلت : وكم بيني وبين بغداد ؟

قال : أربعون فرسخاً . .

فقلت : إنا لله وإنا إليه راجعون : ايش عملت بنفسي ، وليس عندي ما أكتري ، ولا أقدر على المشي . .

قال : اجلس حتى يرجع . . .

قال : فجلست إلى الجمعة القابلة . .

قال : فجاء بشر في ذلك الوقت ومعه شيء يأكله المريض ، فلما فرغ ، قال له العليل : . . . يا أبا نصر ، هذا رجل صحبك من بغداد وبقي عندي منذ الجمعة فردّه إلى موضعه . .

قال : فنظر إليّ كالمغضب ، وقال :

لِمَ صحبتني ؟!

قال : فقلت : أخطأت .

قال : قم فامشي . .

قال : فمشيت إلى قرب المغرب ، قال فلما قربنا قال لي :

أين محلتك من بغداد ؟

قلت : في موضع كذا . .

قال : اذهب ولا تعد . . .

قال : فتبت إلى الله عز وجل وصحبتهم وأنا على ذلك . .

* * *

ولعلّ في شخص بشر رحمه الله رجلين : زاهد في نفسه بالحرمان ، وزاهد مع الناس بالبذل ، والحرمان للنفس أخو البذل للناس كلاهما في جوهره زهد ، ومن ذلك ما حدّث به أحد أصحاب بشر وهو محمد بن الهيثم فيما روى عنه محمد بن حنيف قال :

كنت أدخل على أخت بشر في صغري فأعطتني يوماً كبّة من غزل فقالت : . . بع هذه الكبة واشتر خبزاً وسمكاً . .

قال ففعلت ، فدخل بشر والخبز والسمك موضوع ، فقال بشر :

. . ما هذا الطعام ؟

قالت : رأيت أمي وأمك في المنام فقالت :

إن أردت فرحي وإدخالك السرور عليّ فبيعي من غزلك واشتري خبزاً وسمكاً ، فإنّ أخاك بشراً يشتهيها . . .

قالت : فلمّا ذكرت أمي وأمه بكى وقال :

. . . رحمهما الله ، تغتم لي حية وميتة . . . إني لأشتهيهِ منذ خمس وعشرين سنة ، ما كان الله يراني أن أرجع في شيء تركته لله . . .

قال ابن الهيثم : ثم رأيت بشراً متغير اللون فقلت له :

لماذا ؟ نشدتك بالله ؟

قال : أنا منذ أربعين يوماً آكل الطين في الصحراء ليس يصفو لي الأكل ببغداد ، فتغيّر عليّ بطني ، ولذلك أنا متغيّر . . .

قال : محمد بن حنيف ولا يستكثر ذلك المقدار ـ أي الأربعون يوماً ـ له . . .

* * *

وهنالك في سيرة بشر العطرة قصة متناظرة مع هذه القصة متكاملة معها . . . فقد روى غلام لبشر كان يخدمه أنه زاره يوماً لفيف من أصحابه وإخوانه في داره ممن كان يأنس بهم بشر من أهل مجلسه ، فقال لغلامه :

. . قم فخذ هذه الصرة من الدراهم واشتر لنا خبزاً رقاقاً وشعراء وحلواء وخلالا وماء مثلجاً ومناديل وعطراً ، ولا تبق من الصرة شيئاً . . .

قال الخادم : ولم يكن بشر يصنع ذلك فعجبت من أمره وفعلت ما أمرني به ، فأكلوا وشربوا وانبسطوا إلى تلك الضيافة الكريمة السخية . .

قال : فلما ذهبوا : قلت لبشر : أراك صنعت اليوم شيئاً لم تكن تصنعه من قبل فأين الزهد ؟

فقال بشر : يا بني هذا هو الزهد ، أن تمسك عن الطيبات بينك وبين نفسك ، وأن تتناول منها باعتدال مع أضيافك وزوار دارك ، ألم يقل النبي صلوات الله عليه لرجل غني وضع لهم خبزاً وخلا فحسب : « بئس الأُدم الخلّ » وقال عن الفقير الذي لا يملك إلاّ خبزاً وخلا فوضعهما لأضيافه « نعم الأدم الخلّ » ، الزهد يا بنيّ كما عرّفه المصطفى صلوات الله عليه ليس الحرمان دائماً ولا البذل دائماً بل هو (أن يكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك) . . . كما أن التقوى أن يراك الله حيث أمرك وأن يفقدك حيث نهاك . . .

* * *

شيخ وجنرال

حدّثني من لا أتّهم ممن شهدوا القصة قال :

تعالم الناس في دمشق أن الجنرال . . . المندوب السامي الفرنسي في سورية أجمع رأيه على زيارة العلاّمة المجتهد الشيخ محسن الأمين العاملي رحمه الله تعالى ، وهو آنئذ إمام الشيعة بلا منازع ، بل إنهم يقولون عنه ، أنه لم يأتهم مجتهد مثله قبله منذ زمن بعيد ، ولم يلحقه أحد بعده . . .

وكثر لغط الناس بهذا الأمر الجلل ، حتى أصبح حديث الناس في مجامعهم وأنديتهم ، والشيخ لم يعلم بشيء من ذلك قط .

وانتشرت القضية بين أهل دمشق انتشار النار في الهشيم ، وارتبك أهل حي الأمين الذي يسكن فيه الشيخ بدار بسيطة من الدور الشامية القديمة ، ليس فيها من الأثاث والرياض شيء إلاّ كتب الشيخ وما لا بد منه ، وهرع وجهاء الحي إلى الشيخ يعلمونه بالأمر ، ويسألونه مع شيء من الإلحاف أن يستقبل الجنرال في دار أحدهم بما يليق بمقام الشيخ كي لا يستصغر الضيف أمره وأمر إخوانه ، فليس في دار الشيخ إلاّ ما في دار أفقر إنسان في ذلك العصر على علوّ قدر الشيخ ، وهو لو شاء لكان له في دمشق قصور تزرى بقصور الملوك . . .

وانطلق الوفد ، يتكلمون بصرت واحد أمام الشيخ في حرقة ما بعدها حرقة . . .

. . . يا شيخنا ، غداً يأتيك الجنرال وحاشيته وليس عندك في بيتك ما يجلس عليه أحدهم إن أراد الجلوس ، وما يغني هذا الحصير ، ولا ذلك

البساط الذي تجلس عليه عنك شيئاً ، وليس هذا ولا صحبه ممن يفهم قيمة زهدك[1] .

ولا يقدرونه قدره . . . فاترك يرحمك الله هذه الدار وأجلس في دار أحدنا فكلنا جندك وأتباعك ، لا نالو جهداً في خدمتك ، أو فوّض إلينا الأمر ، ودعنا نفرش بيتك هذا بما يليق بمكانتك وهيبتك في عين الجنرال وقومه من الفرنجة الذين يقيسون الناس بما لديهم من مال ، وما في دورهم من أثاث ورياش ، وما على أجسامهم من ثياب . . .

وأنصت الشيخ بعمامته السوداء الضخمة وثوبه الأسود المهيب ، ولحيته البيضاء التي تكاد تملأ صدره ، وعينيه اللتين تشعّان ذكاء . .

أنصت بكلّيته إلى القوم مطرق الرأس ، حتى انتهوا من كلامهم ، فرفع رأسه إليهم وقال :

أنتم تريدونني على أن أحتفل بهذا الجنرال الكافر ، وأعتني بشأنه والله تعالى يقول : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ [التوبة : ٢٨] فمن هذا الكلب حتى أحتفي أنا به ؟! أولا يكفيهم أنهم يحتلون بلادنا بالنار والحديد حتى نذهب بعد

---

(١) (محسن الأمين) (١٢٨٢ هـ ـ ١٣٧١ هـ = ١٨٦٥ م ـ ١٩٥٢ م):
محسن بن عبد الكريم بن علي بن محمد الأمين ، الحسيني العاملي ثم الدمشقي ، آخر مجتهدي الشيعة الإمامية في بلاد الشام ، له شعر واشتغال بالتراجم ، ولد في قرية شقراء (من أعمال مرجعيون بجبل عامل) وتعلم بها ثم في النجف (بالعراق) وعاد إلى سورية فاستقر في دمشق (سنة ١٣١٩ هـ) وعمل في التدريس والوعظ ثم الافتاء وتوفي في دمشق ، كان مكثراً من التأليف من كتبه (أعيان الشيعة ـ ط) و(الرحيق المختوم ـ ط) ديوان شعره وغير ذلك . وأصدر نجله حسن الأمين كتاب (السيد محسن الأمين : حياته بقلمه وبأقلام آخرين) .
انظر أحسن الأثر لمحمد صالح الكاظمي ، وأحسن الوديعة لمحمد مهدي الكاظمي والرحيق المختوم/ خاتمته ، والذريعة ومجلة المجتمع . والأعلام ٥/ ٢٨٧ .

ذلك فنحترمهم ونعظّمهم مكافأة لهم على احتلالهم أرضنا واستعبادهم أمتنا وقهرهم لنا . . ؟!

والله لن أتزحزح من مكاني هذا ، ولن أحتفل ولن أقوم له ، ولن أغيّرمن أمري شيئاً ، فإن شاء فليأت على هذه الصورة ، وإن شاء فليدع . . فإني لم أدعه إلى داري ، ولكنه هو الذي دعا نفسه .

قال الشيخ هذه الكلمات متأجّجاً ثم انصرف إلى كتبه وكراريسه الموضوعة أمامه وعلى جانبي مجلسه ، ونهض القوم ولم يظفروا من مقدمهم شيئاً فالشيخ هو الشيخ ، وكلمته هي الفصل .

وشيّعهم الشيخ بابتسامته المعهودة ، وانقلبوا إلى إخوانهم الذين أرسلوهم بخفي حنين . . .

أما الجنرال وقومه من الفرنجة فظنوا أن الشيخ سيبتهج ويغتبط ويأمر من حوله بإظهار معالم الفرح . . . ، ومظاهر الاحتفال ، وأنه سيأخذ لنفسه من الأبّهة والزينة ما يليق بهذه الزيارة .

ونفخ الغرور في أنف الجنرال نفخته . . وظنّ أنه في نفس الشيخ شيء يذكر وأن الشيخ سوف يحتفي به وبأنصاره الحفاوة اللائقة ، ولم لا ؟ وهو الحاكم بأمره الآمر الناهي في بلاد الشام المطلق ، بيده الحلو والحامض ، وفي كفه البيضاء والصفراء ، وبين شفتيه بزعمه مصير شعب ، وبين أصبعيه قدر أمّة . . .

ورجعت إلى نسختي الخاصة بي من كتاب (كليلة ودمنة) ، وصفحته على عجل فوجدت فيه هذه القصة :

وذلك أنه يروى فيما زعموا أنّ ذبابة كانت يوماً ملكة الذباب في حقبة من حقب التاريخ ، وجاش في نفسها أن تزور الملوك في جوارها ، وكان جاراً لها في أجمة الأسد ، فبعثت إليه أنها في طريقها إليه لزيارته ليتشاوروا في أمور المملكتين مملكة الذباب ومملكة السباع ، فليهيّىء لها ما يليق بمقامها ومقام أمثالها من الملكات . . .

ووصل الخبر إلى الأسد ، فضحك وقال لرسول الملكة :

قل لملكتك فلتأت فإني قد هيّأت لها ما هو لها أهل من الحفاوة والإكرام ، قالوا ، وجاءت ملكة الذباب بخيلها ورجلها من جيوش الذباب وعساكره ، حتى امتلأت بهم الغابة ، وغصّ المكان ، فما كان من الأسد إلاّ أن نظر إليهم نظرة وهشّ عليهم بذنبه ، وركض عليهم برجله وذرع أرض الغابة جيئة وذهاباً حتى أباد هذه الجيوش برجليه ، ووقعت كفّه على ملكة الذباب أثناء ذلك فكانت مع جندها من الهالكين . .

* * *

وأزفت ساعة قدوم الجنرال ، والشيخ لم يبرح غرفته يذكر الله تعالى ويضرع إليه أن يثبّته بقوله الثابت ، وأن يلهمه في تلك الساعة السداد في القول وفصل الخطاب .

ووصلت سيارة الجنرال في حي الأمين قبيل المغرب قريباً من دار الشيخ ، فترجل منها وصعد إلى غرفة الشيخ الخاصة به على سلّم خشبي قديم ودخلها يتبعه بعض حرسه ورجاله .

وكان الشيخ قد خرج لبعض شأنه ، ثم دخل ، وتلك كانت سياسته مع الفرنجة ، ثم دخل بعد دخول الجنرال وجلوسه على كرسي خشبي من القش ، فقام له الجنرال وصافحه وجلس الشيخ على (طرّاحته) وطفق يسأل الجنرال عن شأنه ويلاطفه ملاطفة رب الدار ضيوفه ، والجنرال يقابله بالمثل .

ودار الحديث بينهما يفتر تارة وينشط أخرى ، حتى حانت الساعة الثالثة بعد الغروب ، فتجرأ الجنرال وقال للشيخ كلمة الختام وبيت القصيد يا سيدي سماحة الإمام . .

أنتم معاشر الشيعة مظلومون في سورية ، مهضومة حقوقكم مغبون شأنكم فالمفتي العام للبلاد الشيخ عطا الكسم من أهل السنّة ، وليس لكم مفت خاص بكم ، فضلاً عن أن يكون مفتي البلاد منكم وأنتم أحق بذلك ، وإني لأقترح

على الحكومة الفرنسية أن تكون سماحتك المفتي الأكبر للمسلمين في هذا البلد إن شئت أو مفتي الشيعة على الأقل أو من ترتضيه من تلاميذك وأتباعك فيكون للمسلمين مفتيان ، واحد للسنة وواحد للشيعة . . .

ونظر الجنرال إلى الشيخ ، فظن أنه بكلمته تلك سيملك قلبه وسينال من التقدير والثناء ، فلطالما زعزع الفرنسيون بهذه المناصب المزيّفة إيمان قلوب كانت من قبل عامرة بالإخلاص لدين الله . . .

والتفت إلى الشيخ ينتظر الجواب ، ويتفرّس في وجهه وقع كلامه من نفسه ولكنّ الشيخ غضب غضبة الليث ، واربدَّ وجهه ، وانتفخت أوداجه ، وقال بلهجة صارمة ، موجهاً كلامه للجنرال الفرنسي حاكم سورية الفعلي :

أيها الجنرال . . .

(إنّ مثل هذا الكلام يخاطب به غيري تزعزع به عقيدته بدينه وتشتريه أنت وأمثالك به لتوقعوا العداوة والبغضاء وتثيروا التفرقة في صفوف المسلمين وهم أمة واحدة ، فتعيدوها جاهلية جهلاء . . .

اسمع وبلّغ من وراءك . . .

نحن المسلمين أمة واحدة . . .

إلهنا واحد . . .

ونبينا واحد . . .

وكتابنا واحد . . .

وكعبتنا واحدة . . .

ليس عندنا فرق . . .

إنما هي ألفاظ جوفاء اخترعها أعداء الإسلام أمثالكم في غفلة من الأمة ليكيدوا للمسلمين . . . وخسئوا . .

ألا إن مفتي المسلمين جميعاً سماحة أخي العلامة الشيخ عطا الكسم وهو

مفتينا وإمامنا ، فأرغب إليك أن تكف عن هذا ، وتوفر القول فيه ، ولا تعد إليه معي ولا مع غيري ، وإلاّ فإننا يد واحدة عليكم . . .) .

وسكت الشيخ ، وقام الجنرال يصفق كفا بكف علامة الخسارة ، وتبعه حرسه ورجاله ولم يودعهم الشيخ ولا قام من مجلسه . . .

* * *

مفتي الشام وإمبراطور ألمانيا

قال الراوي :

حصل إلى دار الخلافة إستانبول في أوائل القرن الرابع عشر للهجرة النبوية رسالة إلى السلطان العثماني[1] بالباب العالي من إمبراطور ألمانيا آنئذ يسأله فيها أن يستفتي العلماء ويبعث بالفتوى إليه في مسألة فقهية تعدّ نازلة من نوازل العصر ، وواقعه من واقعاته الجديرة بالدرس والبحث وترداد النظر .

وأرسل السلطان الاستفتاء إلى كل علماء السلطنة في إستانبول وغيرها من مدن السلطنة وقواعدها الكبرى فلم يظفر منهم بجواب يبلّ الأوام ، ويشفي الغليل يصلح أن يكون جواباً للامبراطور الألماني الذي ينتظر على أحر من جمر الغضى . .

وأشار أحد الصدور في استانبول على السلطان أن يرسل الاستفتاء إلى دمشق الشام يستفتي به مفتيها المرحوم الشيخ محمود الحمزاوي[2] الذي كان مفتياً للديار الشامية ونقيب أشرافها وفارساً صياداً ورجلاً مغواراً . . .

وكانت لهذا المفتي حاشية من الفقهاء الأجلاء هم ندماؤه وسمّاره يجالسهم كل يوم في العشيّات ويسألهم في مذاكرة علمية ومن طرف خفي عن

---

(١) السلطان العثماني يومئذ كان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦ ـ ١٩٠٩) .

(٢) الشيخ محمود الحمزاوي: (١٢٣٦ـ١٣٠٥ هـ = ١٨٢١ـ١٨٨٧ م) ارتقى سنة ١٢٩٩ هـ إلى منصب الفتوى العامة، وأُضيفت إليه مديرية معارف سورية [أعلام دمشق في القرن الرابع عشر الهجري، ص: ٣٣٣] .

المهمات ، يفيد منهم ويفيدهم ، يأخذ خير ما عندهم ويعطيهم خير ما عنده ، ولا يفترقون إلاّ على ذواق ، ولا يجتمعون إلاّ على نادرة حلوة ، وطرفة جميلة ومسألة مفيدة ، ومذاكرة مثمرة ، شأن العلماء العاملين والفقهاء المتمكنين من صدور هذه الأمة ورجالها السابقين .

وطرح الشيخ في إحدى العشيات في داره لدى نديّ جلسائه تلك المسألة الغريبة في بابها فلم يظفر منهم بطائل ، وتفرّقوا في غسق من الليل من دار الأفندي (أي المفتي) على غير فتوى مقنعة أو جواب شاف . . .

مكث الشيخ ليلته النابغية تلك وكانت من ليالي الشتاء الطويلة يقلّب الرأي ، ويطيل التفكير في الحكم الشرعي الذي عسى أن يكون حكم الله في هذه الواقعة يؤيده الدليل ويدعمه البرهان .

وكان السؤال الفقهي هذا صورته : (امرأتان ولدتا في ساعة واحدة في مشفى من مشافي برلين بألمانيا ، ولدت إحداهما ذكراً والثانية أنثى ، وفي زحمة الأعمال التبس الأمر على الممرضات حيث وضعن الولدين معاً في حوض واحد من أحواض المشفى لغسلهما وتنظيفهما ، من هي أم الصبي ، ومن هي أم الجارية ؟) .

وراث الأمر على الشيخ المفتي ، واختلطت عليه الأمور ولم يترك كتاباً ولا رسالة في مكتبته بداره أو في مكتبات العلماء من أبناء بلده إلاّ وبحث فيها عن حل المسألة فلم يجد شيئاً ، ولا عند الفقهاء وغيرهم جواباً ولم يظفر من كتاب ولا عالم ولا فقيه ولا باحث بحلّ .

وفي الثلث الأخير من الليل سمع أهل الشيخ وأولاده من غرفته تصفيقاً وصوتاً عالياً ملأ أرجاء الدار وهو يصرخ بأعلى صوته :

. . . وجدتها ، وجدتها . . . هنيئاً لي ، هنئوني . . . لقد وجدتها . . ولم يكن أحد من أهل الشيخ أو أولاده عندهم خبر بما أهم شيخهم وأسهره ، وما كانوا يبالون بذلك أو يهتمون به . . . فهم في واد والشيخ في واد . . .

ودخلوا على الشيخ المفتي فوجدوه مغتبطاً يحمد الله ويشكره له سبحانه أن وفّقه إلى الجواب الصحيح الذي انقدح في ذهنه مما فتحه الله عليه بنور انبثق في قلبه أنار له ظلمات لجة البحث العلمي . . .

وتوفّر الشيخ على القرطاس بجود عليه بالهيبة الإلهية ويسجّل الجواب إلى السلطان العثماني الذي قبع في قصر يلدز بالباب العالي متحرّقاً ينتظر ما تسفر عنه فتوى الشيخ الحمزاوي مفتي بلاد الشام . . .

وكان نص الفتوى كما رواه الراوي :

(الجواب وبالله التوفيق ، يوضع حليب كل واحدة من المرأتين في زجاجة بكيل مساوياً للكيل في الزجاجة الأخرى ، والمفروض كون الزجاجتين متساويتين وزناً وكيلاً ويكتب على كل زجاجة اسم صاحبة الحليب ، ثم توزن كل منهما ، فالزجاجة التي يكون وزنها أزيد من الأخرى فهي للصبي والأنقص وزناً للبنت ، وعند الوزن يلاحظ أن زجاجة الصبي في الميزان أثقل من زجاجة الجارية بضعف الوزن ، فإذا كانت زجاجة البنت مثلاً فيها من الحليب وزناً عشرة غرامات فزجاجة الصبي فيها من الحليب وزناً عشرون علماً بأن الكيل واحد ووزن الزجاجتين الفارغتين واحد) والله تعالى أعلم .

وأحبّ الشيخ أن يعلّل ذلك لكنه ترك التعليل لسؤال يرده من السلطان وقد توقّع بذكائه اللماح ذلك . .

ولما قرأ السلطان الرسالة أعجب بالجواب ، ولكنه لم يرسله للإمبراطور حتى أرسل للشيخ الحمزاوي يسأله فيها عن الدليل لما قال : فقال له الشيخ في الرسالة الجوابية باختصار : (قوله تعالى : ﴿ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾ [النساء : ١١]) .

فرح السلطان بهذه الفتوى النادرة وبعث بها إلى إمبراطور ألمانيا ففرح بها الإمبراطور فرحاً شديداً ما فرح مثله وأطلع عليها رجال الكنيسة فتعجبوا من

ذكاء الشيخ ، وجرّبت المسألة عملياً كما أشار الشيخ فظهرت صحتها كالشمس في رابعة النهار .

ولم يجد الامبراطور ما يقدّمه للسلطان إلاّ كتاب شكران وامتنان ، وسأل الإمبراطور عن هواية الشيخ فقالوا له : الصيد ، فأرسل الإمبراطور الألماني بيد سفيره بدمشق للشيخ هدية قيّمة بندقية ألمانية للصيد ، يقال لها (فلنطة) كانت تصيد الطير في السماء على بعد كبير ، كان يعتز بها الشيخ الحمزاوي حين يصطاد بها مع صيادي دمشق الشجعان يوم كان الصيد هواية الملوك ، لا طعام المرتزقة .

قالوا : وأرسل له كذلك كتاب شكر ونياشين وأوسمة رفيعة كان المفتي الحمزاوي رحمه الله يحتفظ بها في خزانته الخاصة . .

* * *

الفصل الثالث

على الطريق

ردّة الذّبابة..

ومؤتمر إبليس..

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٨] صدق الله العظيم .

روت كتب طبقات المالكية عن الإمام أسد بن الفرات المالكي وهو من أكابر المالكية المتقدّمين ، وكان راوي فقه مالك والموطّأ عن الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة . . والمعروف في التاريخ بالفقيه الأميرال . . أنه دخل الجامع الكبير بالفسطاط يوماً وهو في مصر فسمع أشهب وهو أحد فقهاء ذلك العصر وكان قد لزمه من قبل يتكلم في الفقه ، وأمامه جمع كبير من المستمعين غصّت بهم رحبات المسجد على سمعته ، وهو مستند إلى أسطوانته في المسجد الكبير ذاك يتكلم في حق الإمامين مالك وأبي حنيفة رحمهما الله تعالى بحيث يردّ عليهما بما لا يليق ، فصبر أسد بن الفرات حتى نفد صبره فوقف أمامه وصرخ في وجهه بصوت جهوريّ سمعه كلّ من كان في المسجد قائلاً :

. . (إلى متى يا هذا ؟ أما كفاك ما تكلّمت به من الردّ في حق هذين الرجلين ؟ أما ترعوى . . ؟ فوالله ما مثلك ومثلهما إلاّ كمثل رجل أتى بحرين زاخرين ، فبال فرغى بوله فقال : هذا بحر ثالث . . . !!) .

فضحك الناس . . وانصرفوا عن أشهب . . . أمّا هو فألجم ووجم مكانه لا يحيد . . . فلكأن صاعقة من السماء نزلت عليه . . . ، ولو أنّ إنساناً في تلك اللحظة سأله : ما تشتهي ؟ لقال له :

. . . لا أشتهي شيئاً من الدنيا سوى أن تنشق الأرض وتبتلعني من خجلي مما قيل . . . وأمّا أسد بن الفرات فترك أشهب وفارقه إلى ابن القاسم فلزمه مدة . . .

* * *

وقفت ملياً عند هذه القصة التي تصرّفت قليلاً في روايتها بما يقتضيه المقام ، ودار برأسي أمور كثيرة أبرزها وأشدها خطراً أمر تلك القاذورات من الإفك الذي أخرجته أدمغة يهودية ، وصاغته أيد صهيونية آثمة ، ثم خرجت به على الناس ، مؤسّسات مشبوهة هي إلى معسكر عداء الإسلام أقرب منها إلى حرية الفكر المزعومة . . .

ولم يكن للمؤلف بطل الرواية من حظّ إلاّ كتابة وصفه الكريم . . . أستغفر الله بل أخاله وصفاً لمسمّاه ، غضاً كعقل صاحبه ونفسه المريضة العفنة . . وشاءت الأقدار أن يكون هذا المسخ من المخلوقات هو كبش الفداء . . .

خطرت في نفسي ساعة علمت بالأمر على حقيقته هواجس شتّى منها ، الردّ على هذه القاذورات من الإفك . . . على الأقل ، وذلك أضعف الإيمان . . . واستشرت واستخرت فرأيت أنّ الأكرم لنا ثمّ لنبيّنا المعظّم صلوات الله عليه هو صرف النظر عن ذلك الرد وعن المردود عليه ، فربّ ردّ رفع من قدر من ردّ عليه من حيث لا يستحق سوى نظرة ازدراء . . . وربّ إهمال يكون أبلغ بكثير من رد على مخلوق مسخ لا يستحق إلاّ بصقة على وجهه . . .

والحق أني لم أجد ما أردّ عليه ، ولا من أردّ عليه . . .

فمن الذي يرد على مخبول معتوه وضع في فمه وعقله ما يخجل المرء ،

ويترفّع من الإشارة إليه والإيماء له ولو عن بعيد ، ثم راح ينفث خبثه ذاك بين الناس . . .

وهو لو كان إنساناً سوياً عنده مزعة من حياء أو مسكة من عقل لجاءنا بفكر أو بمنطق أو بإثارة من تعالم ولو باطلاً ، فرددنا على الشبهة بالحجّة وعلى الخطأ بالصواب ، وعلى الباطل بالحق الذي لا ريب فيه ، وقرعنا عقلاً بعقل . . ولكنها الصفاقة والحماقة ، نبعت من معدنها ، ولا يستغرب الشيء إذا خرج من معدنه وقديماً قال الشاعر العربي :

لكـــل داء دواء يستطـــبّ بـــه إلاّ الحماقة أعيت من يداويها

ويم سألت محكمة تركية في العهد الكمالي المصلح الكبير سعيداً النّورسي رحمه الله تعالى أنّ هنالك أسئلة من إحدى الجهات غير الإسلامية في دولة عظمى آنئذ حول الإسلام فيها طعن غير مباشر وتعريض بالإسلام . . وبنبيّ الإسلام وجعلوا الرد محصوراً بستمائة كلمة فقط ، فقال قولته المشهورة :

. . . إنّ الردّ لا يكون على هذا الهراء بستمائة كلمة ولا بستين ولا بست كلمات وإنما . . . ببصقة على وجه قائلة . . .

* * *

ورجعت إلى نسختي الخاصة لديّ من كتاب (كليلة ودمنة) أفزع إليها كلّما حزبني أمر ، آنس لها وأجد فيها العزاء والسلوان ، والحكمة البالغة ، والقصة الهادفة ، والنكتة اللاذعة ، فوجدت فيها القصة الآيتة :

وهي أنهم زعموا أنّ ذبابة من أمّة الذباب المشرقي في بلاد الهند كانت ذات سحنة هندية قميئة ، ولكنة أعجمية ، وعقل متفرنج مستغرب ، ولسان لا يرطن إلاّ بلغة الفرنجة لشدّة إعجابها بهم ، وربما كانت على وضاعتها وحقارتها تتقزّز وتشمئز من كل ما يتصل بأمة الذباب من قومها وعشيرتها لغلبة عقلية التفرنج عليها ، ولفساد تمكّن في أصلها ، واعوجاج في تفكيرها . . . اشتدّ به عضدها وتفتّل ساعدها فهجرت موطنها ميممة بلاد الغرب فاجتازت

حصاة الأرض حتى استقرت في أشد بلاد الغرب عداوة للشرق وأهله. . . فثقفت ثقافة الفرنجة وتفرنج عظمها ولحمها وجلدها ووبرها. . . فازدادت بعداً عن أصلها ودينها وقومها حتى لم يبق لها من ذلك كلّه إلاّ الاسم والسّحنة ، وهي لو قدرت أن تتخلّص منهما لفعلت .

ونفضت الذبابة المتفرنجة من حولها من أمم الذباب فلم تجد من يقوم لها ، فرفعت عقيرتها بالتحدي والنّزال شأن الجبناء فلم يكترث بها أحد ، فظنّت ذلك جبناً من القوم وخورا. . . فراحت تتغنّى وتغالي في إظهار قوتها وعظم منّتها ، وأمم الذباب في الغرب لا يبالون أحداً ولا يكترثون لشيء. . . فسواء عليهم أجعلت من نفسك عنترة بن شدّاد في الشجاعة ، أم حاتماً الطائيّ في الكرم والسخاء ، أم سحبان وائل في الفصاحة والبلاغة. . . فهذا يعود لك وحدك. . . وأنت دون غيرك تقع عليك تبعة ما تقول أو تدّعي. . .

أمّا هم ، فلهم من شؤونهم وأنفسهم شغل شاغل عنك وعن حماقاتك. . . ما لم يصل الأمر منك إلى إيذاء الآخرين ، فدونك ذلك خرط القتاد. . .

ظنّت الذبابة المسكينة أنها بصنيعها هذا وحمقها واستكبارها تحقّق ذاتها ، فتتعالى يوماً عن الانتساب إلى أمم الذباب لعلّها تصبح من أمّة الغزلان أو المها أو ما شابه. . . !! فيضيع على الناس خسّة نسبها ووضاعة أصلها وفصلها. . . وهل يحتاج الأمر منها إلا إلى انتفاخ قليل هي أقدر الناس عليه لا يكلّف صاحبه شيئاً. . . ثم دعوى عريضة ، ثم نوع من التمرد والتطاول. . فإذا اقتضى الأمر أن تسلّط لسانها على كبراء القوم كالأسود والسباع ومن شاكلهم فتذهب في سبّهم وشتمهم بأبشع السّباب والبذاء. . . فهذا أمر ميسور وهو مما تشتهيه أمم الذباب قاطبة لا سيما الذباب المتفرنج. . . وهو مركّب نقص كما يقول علماء النفس في نظرياتهم. . . وذلك أنك إذا لم تسطع أن تبني فاهدم ، وإن لم تسطع أن تكون سبعاً فسبّ السباع وليوث الغاب ولا عليك. . . فلا تعدم أن ينبرى للرد عليك أحدهم تحت وطأة الكلام الرذل فتصير من الكبراء ويصنّفك القوم منهم. . .

وجاءت هذه الذبابة المسكينة الحمقاء منتفخة . . . جاءت إلى ملك السباع تسبّه بأقذع السّباب المنكر ، فلم يكترث لها ، ولم يعلم بها . . . وأنّى له ذلك ؟! وهو لو جاء ألف ألف ألف ثم ألف ألف ألف ثم ألف ألف من أمثالها إليه تهاجمه وتشتمه لما اكترث لها ، ولما زاد على ضربة بطرف كفّه عليها فأباد خضراءها وتركها أثر بعد عين كأن لم تغن بالأمس . . .

فلّما سمعها ذباب الفرنجة وجدوا فيها ضالّتهم ، فعرضوا عليها أن تصنّف في هذا الهراء كتاباً تجعله رواية مشتملة على حلم وأساطير ، تظهر به تمرّدها على ملك السباع فتسبّه كتابة لا شفاهة ، فهذا أبلغ ، ثم تنسب هذا الكلام لأناس خياليين ضمن حلم أسطوري مضحك ليختلط الجدّ بالهزل فتخفّ التبعة ، وأن تبالغ في كلامها بإظهار ردّتها وكفرها وضلالها ، وأعطوها ثمن خيانتها مبلغاً من المال وعلفاً ومؤنة سنة ، ولكنّهم أضمروا في أنفسهم أنهم إذا ما فعلت ما اشتريت له قتلوها هم بأيديهم وأرجلهم ، ثم ذهبوا يقولون للملأ إنّ جنود ملك السّباع هم الذين قتلوا هذه الذبابة المسكينة ، فانظروا إلى هؤلاء القتلة المجرمين . . . ثم ما ذنب هذه الأديبة الكاتبة أعني الذبابة الفاضلة ؟!

والحق الذي لا مرية فيه أنّ عقلاء أمّة الذباب في بلاد الفرنجة لا يصنعون هم من المرء خادماً لهم ولأغراضهم فهم بغنية عن ذلك ، وهم لا يقولون لأحد ، خن قومك وأمّتك ولكنّ المرء هو الذي يخون أوّلاً ويتنكر لحقيقته فإذا فعل رخص . . . فإذا انقلب مسخاً مأجوراً بحث حينئذ عن ذلك الذي يدفع له ثمن خيانته الآثمة تلك ليوظّفها ذلك الدافع في مصالحه لا في مصالح الخائن لأن مصلحته في الأجرة وقد قبض . . . ورجعت إلى الرواية في نسختي من الكتاب فإذا فيها أنّ ذبابة أخرى قامت خطيبة في النّدي تدافع عن أختها الكاتبة فقالت :

وهل أختي فلانه إلاّ أديبة أمة الذباب وكاتبتهم ؟ . . ولها بعد حرية القول . . ألسنا أحرار في امم الذباب ؟ . ثم ماهو المشين في سبّ ملك السباع وقومه وجنوده بل وأمته وقبيلته ؟ . . إنها عبّرت عما تعتقد وأعربت عنه في

روايتها تلك ، ولكلّ أن يعبّر ويعرب عما يعتقد ويرى كما يحلو له ما دام أنه لم يستعمل السلاح ؟.. قالت الرواية من كتاب كليلة ودمنة.. من نسختي الخاصة تلك :

وهكذا كان...

فلقد سمّنوها وعلفوها ليقتلوها ، فلما انتهى دورها من المسرحية قتلوها سراً بأن داسوها بأرجلهم في جيش لجب ؟ من الذباب وما أسهل ذلك عليه... ثم خرجوا إلى الملأ يشير بالأكف الأصابع إلى ملك السباع وقومه :

أن احذروا أنصار الإرهاب والمتعصبين الذين يحرّمون حرية الرأي شأن القرون الوسطى وعصور التخلّف...!!

أمّا أنا.. فرنّقت عيناي ، واختلط فيّ ما يعقل بما لا يعقل ، واهتز الكتاب في يدي ، فطويته عند هذا القدر من قراءتي المسائية قبيل النوم وهوّمت تهويمة.. ثم أغفيت...

* * *

رأيت فيما يرى النائم أني في أرض فضاء لا أدري مكانها وأنا أسير فيها وحدي على غير هدى في ليل أليل بهيم وفي جوف صحراء موحشة في جنباتها أدغال وغابات مكتظّة ووديان سحيقة فيها أشجار عاتية ملتفة لو رفعت يدك لا تكاد تراها ، فساقتني قدماي والخوف يحدوني من الصحراء إلى غابة قريبة.. فقلت لنفسي : تصعد شجرة كبيرة فتنام على أحد أغصانها فيكون لك سرياً إلى الصباح فترى بعد ذلك رأيك... ففعلت ، وفي مثل هذه المواقف الرّهيبة يسيطر على العقل الإنساني دائماً ومحاكماته الخوف والرهبة فدخلت الغابة حيث ساقتني رجلاي ، فمشيت فيها على طريق من الحجارة الحصباء كلّما فرقعت واحدة منها في هذا السكون الشامل والليل الموحش ، ظننت الغابة كلّها شياطين تجمّعت عليّ.. فامتلأ قلبي خوفاً ورعباً... ولكني تصبّرت وتلبّثت ، وكتمت ما في نفسي من التهاويل...

فرأيت قبلي باب خوخة قديماً لعله شهد الطوفان.. فدفعته عساي أن أجد فيه مأوى... فدفعت إلى درج حجري فنزلت فيه، فإذا أنا بقوس حجري صغير لا يكاد يدخل فيه المرء إلاّ منحنياً... فانحنيت وولجت، فإذا قصر كبير وحدائق غنّ وأنهار وأطيار وأزهار ودنيا غير هذه الدنيا لا تمتّ إليها بصلة... وتسمّعت فإذا زمازم وأصوات منكرة.. وقائل يقول بصوت عال أجشّ:

... يا كلاخ قاوين.. تعال..

فجاء شخص قمأة لزّ قزم ليس كلداته وأترابه.. وهو منحن يكاد عثنونه يمسّ الأرض، ترجف رجلاه هيبة وتصطك ركبتاه خوفاً فقال:

.. السمع والطاعة.. ها أنذا يا سيّدنا الإمبزاطور الأكبر والشاهنشاه الأعظم مالك رقابنا فأمر بما تريد...

فامتلأت رعباً على رعب.. حتى كاد قلبي يسقط من صدري... لكني تصبّرت، وساقني حبّ الفضول إلى معرفة هذا القصر ومن فيه، وهذا الجبار العتريس وشأنه في استعباد قومه.. فدفعت إلى القوم وولجت عليهم البيت بغير استئذان فنظروا إليّ شزراً بعيون من الجمر.. وهمّوا بي، لكنّ رئيسهم الجالس على عرش من ذهب نهاهم وزجرهم وقال لهم:

... خلّوا عنه.. فلعله ينفعنا بنقل ما نريد أن نقوله في شأن الذبابة المرتدة، وملك السباع إلى قومه من الإنس فتلبّثوا في أماكنهم وحدّقت في وجوههم المنكرة فإذا عيونهم مائلة بالطّول، وهي بعد فوق حواجبهم لا تحتها كعيون الإنس، أمّا أنوفهم فهي ثقوب يخرج منها دخان أسود نتن، وجسومهم محمرّة كأنها شويت بالنار منذ قليل لا يلبسون عليهم إلاّ أوراقاً من شجر الغابة يخصفون بها ما يستر عوراتهم وهم فيما وراء ذلك عراة لا يخجل بعضهم من بعض.. لو اطلعت عليهم لوليّت منهم فرارا.. ولملئت منهم رعبا...

أما ذلك الخبيث الجالس في صدر المجلس فقد هالني ما يعظّمه به قومه

ويفخّمون من شأنه ، وكان إلى جانبي واحد منهم يظهر منه أنه مصلح يريد لي الخير ، فسألته عن ذلك العتريس فقال لي : متعجباً ،

أما تعرف زعيمنا إبليس أبا مرّة ؟!

قلت : بلى . . لو . . .

وأردت أن أكمل اللعنة فذكرت مكاني منهم فابتلعت تتمة الكلام وسكتّ . . ثم قال لي ذلك الجار وكأني به من أفاضلهم لو كان فيهم أفاضل . . فهو دائماً يصلح من شأني ويرتق ما أفتق ويدلني على سبيل النجاة في هذا المأزق العظيم . . . ويلك أما تعرف أنّ هذا هو قصر زعيمنا وداره ، وإننا الآن ونحن كبار رجال الجماعة الإبليسية . . في مؤتمر ؟ . . نعم مؤتمر إبليس . . . فقام في رأسي كلام زوّرته . . . لكني آثرت السلامة فسكتّ لم أنبس . . أما ذلك الجار المصلح فقال لي :

. . . إنّ القوم هنا في اجتماع طارىء ، وهم دهاقنة الجماعة ، قلّما يكون شر على ظهر الأرض إلاّ وهم صانعوه ومحطِّطوه . . اجتمعوا ليبحثوا في شأن تلك المشكلة التي أثارتها تلك الذبابة التافهة لعنها الله . . وهل نحن متفرغون لشؤون الذباب ؟ . . ألم يبق علينا من المهمات والمعضلات غير هذا ؟ . . وحقّ زعيمنا هذا ، لقد مرّ علينا اليوم ثلاثة أيام متصلات ونحن في هذا المؤتمر بين قيل وقال ، لا نأكل إلاّ قدر ما يقوم بالعيش ويدفع غائلة الموت ولا أدري متى ننتهي . . . . ؟ .

فلكزه واحد منهم كان بجواره قائلاً :

ويحك يا . . . رتبوت . . شيء يقول به زعيمنا ويجمعنا لأجله يكون أمراً تافهاً ؟ . فسكت الرجل المصلح وأدار لي ظهره . . .

فقال إبليس وهو جالس على عرشه الذهبي وفوق رأسه تاج من الأحجار الكريمة ما رأيت له مثيلاً من قبل :

. . . اسمعوا : إنّ كل شيء إنما هو بأيدينا . . ولن يخرج شيء عنّا ، وإنّ

كل ما فعلته الذبابة المتمرّدة وما فعلته أمة الذباب من الفرنجة إنما هو بفطنة أخيكم (شناخ شالون) يرحمه الله ، فلقد قتله سباع الغابة لأنه هو الذي أجرى على لسان الذبابة بالوسوسة شتم ملك السباع بصورة روايتها المضحكة التي ظنّت أنها بها ستصبح أديبة عالمة فكانت في ذلك من الخاسرين ، هذا ولم ينس أخوكم (شناخ شالون) أن يسهّل عليها سبيل تناول الحشيشة المنشّطة فإنه أمر مساعد. . . ولقد كلفت الآن أخاكم « شهناز قايماز » أن يخطّط لانتشار الرواية ، وأن يوسوس لوجهاء أمم الذباب في الأرض أن يرفدوا هذه الذبابة بحفنة من الدولارات ، حتى إذا ما اطمأنت لذلك قتلوها سراً ، فداسوها بأرجلهم ، ثم أشاروا إلى ملك السباع ووزرائه ودولته أنّ هؤلاء هم القتلة المجرمون. . فإذا ثبتت عليهم جريمة القتل فأبيدوا خضراءهم ، ولا تأخذكم فيهم رحمة. . . وأما أنتم أيها الأحباب فعليكم بمساعدة هذين الأخوين في عملهما المنوط بهما ، وأنا أضمن لكم النجاح والتوفيق. . . فماذا ترون ؟. .

فقالوا جميعاً بصوت واحد كالرعد. . حتى كدت أظن أن كل ما في الدنيا وقع بعضه على بعض فصار ركاماً تذروه الرياح. . .

. . . الرأي ما تراه. . يا زعيم المردة والشياطين ، وهل نحن إلاّ جنودك وأولادك الأوفياء ؟ فلك المجد. . .

ثم خرجوا كلّهم إلى ما قال زعيمهم لا يلوون. . .

وخرجت معهم أوهمهم أني سأساعدهم في عملهم ذاك. . وانطلقت هارباً أعدو حتى صرت خارج الغابة ورجعت إلى الصحراء الموحشة ، وهذه الشخوص المنكرة تمر أمامي مسرعة كالبرق ، وأنا أستعيذ بالله وألوذ بما أحفظ من كتابه الكريم. . .

وأحسست أنّ عينيّ تؤلماني ، فعركتهما. . . وأفقت على صوت رخيم شجيّ من بعيد يرتّل في هدأة الليل على نسمات السّحر بين يدي أذان الفجر قال تعالى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام : ١١٢]. . .

فتوضأت وخرجت إلى الصلاة أؤم المسجد. . .

أمّا الصوت فاختفى ، وأما المسجد فوصلته وصلّيت الفجر. . . وأما دورة باطل الحياة فرجعت من حيث جاءت ، ولكن بقي في نفسي أثر لا يمحى ولن يمحى. . .

ذكرى ردّة الذبابة ، ومؤتمر إبليس. . . وقبل ذلك كلّه ، صوت القارىء يتلو الوحي الأعلى. . . ويغرّد به. . . وبعد ، أليس الله تعالى هو الذي يقول محي التنزيل ، ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الرعد : ١٧] صدق الله العظيم. . .

* * *

حقيقة الفقه

وربانية الفقهاء الأولين..

ودرت نصوص القرآن والسنّة تترى في فضل الفقه وعلوّ درجته ، وكذلك في كلام الصحابة والتابعين وتابعيهم من القرون الثلاثة الأولى المشهود لها بالخيرية ، رضوان الله عليهم في مكانة الفقه من الدين ، فمن ذلك قول الله تبارك وتعالى :

﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة : ١٢٢] .

وجاء الحديث الصحيح عن معاوية رضي الله عنه مرفوعاً : « ومن يرد الله به خيراً يفقهه في الدين » وفي رواية أخرى (ويلهمه رشده) ، ومثل ذلك عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً ، وعلى ذلك جرى عمل الصحابة والتابعين وتابعيهم وقد شهد رسول الله ﷺ لابن مسعود بالفقه فقال فيه « أفقهكم ابن أم عبد » وقال في حق معاذ بن جبل « أعلمكم بالحلال والحرام معاذ » وقال في حق زيد « أفرضكم زيد » ودعا لابن عباس فقال « اللهم فقّهه في الدين وعلّمه التأويل » رضي الله عنهم وأرضاهم .

وكان عمر رضي الله عنه زمن خلافته الراشد ، يستشير ابن عباس لفقهه ويأخذ برأيه ، ويعتدّ كلّ الاعتداد بابن مسعود وبفقهه ، ويقول فيه : (عندكم صاحب النعلين والوساد ابن أم عبد وتأتون إليّ ؟) أما الإمام عليّ رضي الله

عنه وكرّم وجهه[1] فكان من فقهاء الصحابة ومن الذين انتهت إليهم الفتيا ولا سيما في الفرائض والمواريث ، حتى أنه حلّ مسألة فرضية على المنبر وهو يخطب الجمعة ، فرد الجواب على ذات السّجعة فسميت المسألة المنبرية ، ومن المعلوم أن النبيّ صلوات الله عليه كان يقدم فقهاء الصحابة ويستشيرهم ويعتد برأيهم فيما لم يوح إليه ويقدّمهم في الإمامة على الناس والإمارة حال غيابه وكانوا يسمّون آنئذ القرّاء ، لفقههم ، وعلى ذلك مشى أمر الخلفاء الراشدين المهديين من بعده .

وفي زمان خلافة علي رضي الله عنه كان يمتحن بنفسه القصّاص في المساجد فإذا لم يكن القاصّ فقيهاً أخرجه أمير المؤمنين من المسجد بموجب السياسة الشرعية التي يملكها الإمام الأعظم على الأمة .

وقد زجر عطاء بن أبي رباح التابعي الجليل عبد الملك بن مروان الخليفة

---

(١) علي بن أبي طالب : (٢٣ ق .هـ ـ ٤٠ هـ) (٦٠٠ ـ ٦٦١ م) .
والأشهر أن أبا طالب اسمه عبد مناف بن عبد المطلب الهاشمي القرشي ، أبو الحسن أمير المؤمنين رابع الخلفاء الراشدين وأحد العشرة المبشرين وابن عم النبي ﷺ وصهره وأحد الشجعان العظماء ، ومن أكابر الخطباء والعلماء بالقضاء ، وأول الناس إسلاماً من الغلمان ، ولد بمكة وربي في حجر النّبي ﷺ ولم يفارقه ، وكان اللواء بيده في أكثر المشاهد ، وولي الخلافة بعد مقتل الخليفة الراشد عثمان رضي الله عنه سنة ٣٥ هـ ، فقامت فتنة انتهت باستشهاد سيدنا عليّ رضي الله عنه وكرّم وجهه على يد الخارجي عبد الرحمن بن ملجم المرادي في ١٧ رمضان سنة ٤٠ هـ ، روى عن النّبي ﷺ ٥٨٦ حديثاً وجمعت أقواله وخطبه ورسائله في كتاب سمي (نهج البلاغة ط) وكان أسمر اللون أقرب إلى القصر ، لحيته ملء ما بين منكبيه ، شديد الذكاء ، عظيم الفقه في الدين .
ابن الأثير : حوادث ٤٠ ، والطبري ٦/ ٨٣ ، والبدء والتاريخ : ٥/ ٧٣ ، وصفة الصفوة : ١/ ١١٨ ، واليعقوبي ٢/ ١٥٤ ، وحلية الأولياء : ١/ ٦١ ، والمرزباني ٢٧٩ ، والمسعودي ٢/ ٣٩٢ ، والرياض النضرة : ٢/ ١٥٣ ، والإصابة الترجمة : ٥٦٩٠ ، والأعلام ٤/ ٢٩٦ .

بعد الصلاة لأنه سأله في وقت الدعاء والتسبيح فلم يجرؤ على الرد عليه لفقهه .

وزمن الإمام أبي حنيفة رحمه الله ورضي الله عنه كثر الجدل والفرق وعلم الكلام وكان أبو حنيفة من قبل متكلماً نظاراً ، ثم انقلب إلى الحلال والحرام وقال (طلبت علم النحو فوجدت آخره ـ أي ثمرة التخصص فيه ـ تعليم الصبيان وطلبت علم الكلام فوجدت آخره أن يقال عنك كافر أو فاسق ، وطلبت الفقه فوجدته سيّد العلوم كلّها فلزمته) .

حقيقة الفقه عند الأئمة المتقدّمين :

سأل فرقد السّنجّي يوماً شيخه الحسن البصريّ : (إن الفقهاء يقولون غير ما تقول ؟) فقال له الحسن رحمه الله ورضي عنه : (ويلك أو ويحك يا فرقد ، وهل رأيت فقيهاً قطّ بعينك ؟ إنما الفقيه هو المعرض عن الدنيا المقبل على الآخرة الراغب فيما عند الله عز وجل) .

والفقه لغة : الفهم مطلقاً ، يقال : فقه يفقه كعلم يعلم : أي فهم سواء أكان فهمه كاملاً أو ناقصاً ، ويقال : فقه الرجل يفقه مثل كرم يكرم أي : صار الفقه له سجية ، وتفقه الرجل تفقهاً وفقهاً وفقاهة أي : تعاطى الفقه .

وعرّف الفقه الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي صاحب المذهب رحمه الله بأنه : (معرفة النفس مالها وما عليها) .

والمعرفة : هي إدراك الجزئيات عن دليل ، والمراد بها سببها وهو الملكة الحاصلة من تتبّع القواعد مرّة بعد أخرى .

وهو تعريف عام يشمل العلوم الإسلامية من اعتقاديات ووجدانيات ، ومعاملات ، فزاد الحنفية بعد ذلك كلمة (عملا) فصار التعريف (معرفة النفس ما لها وما عليها عملا) فخرج مثل الأحكام الاعتقادية والوجدانية .

ثم جاء الإمام الشافعي رحمه الله ورضي عنه فعرّف الفقه فقال :

(هو العلم بالأحكام الشرعية المكتسب من أدلتها التفصيلية) قلت : وهو تعريف تخصصي بحت ليس مدار بحثنا هنا .

والذي يهمني هنا هو أن القرن الأول الهجري ونصف القرن الثاني بل ثلثاه مضيا والفقه عندهم هو (معرفة النفس ما لها وما عليها) .

وجمعا بين الأقوال والاجتهادات السابقة أقول :

إنّ الفقه فقهان :

١ـ **فقه أكبر** : وهو هذا المعنى العام الشامل الذي يشمل العقائد الصحيحة والأحكام الشرعية والأخلاق والسلوك معاً .

٢ـ **وفقه كبير** : وهو ذاك المعنى التخصصي الضيّق الذي نصّ عليه الإمام الشافعي رحمه الله وارتضاه الأصوليون من بعده حتى أن الفقهاء المتأخرين قلّصوا من حجمه فقالوا : (هو العلم بالأحكام الشرعية) فقط فلم يعد الدليل وهو المدرك ومعرفته من الفقه عند المتأخرين من الفقهاء ، وهذا أمر غريب .

الفقه : هو معرفة النفس ، فمن عرف نفسه عرف ربه ، أي من عرف نفسه بالفقر ، عرف ربّه بالغنى ، ومن عرف نفسه بالجهل ، عرف ربّه بالعلم . . وهكذا . . .

ومعرفة ما للنفس أي من الحقوق كالتعليم والتزكية والنصح لها والتربية قال تعالى : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس : ٧ـ١٠] .

ومعرفة ما عليها من الواجبات أمام الله عز وجل بالعبودية والعبادة ، وأمام الناس بالعدل ثم بالإحسان ، وأمام نفسها بالمجاهدة والمخالفة فيما يرضي الله عز وجل .

هذا هو جوهر الفقه في مفهوم السلف الصالح ، وهذا هو تصوّرهم إياه بلا

زيادة ولا نقصان ، وهذه هي الحقيقة المجرّدة للفقه في الإسلام لديهم وعلى هذا فيدخل الفقه الكبير في الفقه الأكبر دخول الجزء في كل .

فما كانوا يمنحون الإنسان رتبة الفقاهة ، إلاّ إذا تحقق بهذا المعنى من العلم والعمل ، والورع والصيانة وحفظ محارم الله ، والوقوف عند حدوده ، فكان علمه حجّة له لا عليه ، لذلك كان الفقيه هو القدوة الحسنة للناس في الالتزام بالدين ، ثم في عرضها بأقواله وأفعاله وأحواله ، فما كان هنالك في هذه الحقبة فرق كبير أو واضح بين الفقهاء والسالكين الزاهدين ، بل هذه كتب التراجم كالحلية لأبي نعيم والرسالة للقشيري ، وأضرابها تضع الفقهاء من السلف الصالح رعيل القرون الثلاثة في قمة الزاهدين والأولياء ، وإلاّ إذا لم يكن هؤلاء أولياء الله تعالى فمن الولي ﴿ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال : ٣٤] كما قال الإمام الشافعي : (إذا لم يكن العلماء أولياء الله فليس لله في أرضه ولي) وإذا لم يكن أبو حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل وإسحق ابن راهويه والأوزاعي والثوري أولياء ، فمن الولي إذن ؟!

وإني أقول على الملأ قولاً خذوه عني : ألا ما أحوجنا إلى الفقه بهذا المعنى العظيم وما أحوجنا إلى فقهاء من هذا الطراز وإنّ آخر هذه الأمة لا يصلح إلاّ بما صلح به أولها .

هذا هو التصور الصحيح للفقه الأكبر ، وهو البلسم الشافي لأمراض النفوس المستعصية في هذا العصر إن شاء الله .

* * *

أما بعد . .

فهذه قبسات هادفات من عظمات الفقهاء السابقين تدلنا على أنهم لم يقصروا في فقههم على معرفة بعض الأحكام والأدلة ، بل كان فقههم شاملاً الشريعة كلّها ومجمل العقيدة الوسط علماً وعملاً وتحقّقاً ، تصوّراً وتصديقاً فقهاً وفهماً وتطبيقاً .

وهذا هو إسلام الصحابة وفقههم رضوان الله عليهم .

وهذه هي الربانية في الفقهاء الربانيين في الأمة الربانية الواحدة وما أحوجنا إليهم اليوم . . .

فما قيمة علم ليس معه عمل ومحاسبة للنفس ومراقبة لله وخشية منه ؟ ذلك هو علم اللسان وما أغنانا عنه .

الفقه هو الخشية من الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ [فاطر : ٢٨] الفقه هو ما يدلك على الله ، فإذا لم يدلّك الفقه والعلم على الله فالجهل خير منه .

وقد نعى الله على اليهود أنهم في علمهم الذي لم ينتفعوا به لأمراض مستحكمة في قلوبهم كمثل الحمار يحمل أسفارا . . .

وهذا هو المثل لطالب علم يعلم شيئاً ويعمل بخلافه ، اتّباعاً لهوى نفسه ، فهو الذي اتّخذ إلهه هواه وأضلّه الله على علم .

ولعلّي بعد هذا غني عن البيان أن الداء الذي تشخّص في الدعاة للإسلام اليوم هو الجهل في طلاب العلم ، بل هو جعل العلم كلمات على اللسان يلقلق بها ذلك الإنسان ثم يتركها ، ويجري لشأنه حسبما يوحي له هواه .

والدواء الوحيد والعلاج الشافي النافع إن شاء الله يكمن في صحوة الضمير لدى طالب العلم صحوة توقظ فيه قلبه المتلبّد ، ووجدانه النائم في سبات عميق ليصحو على ذكر الله وخشيته ومراقبته تعالى ، فيحاسب نفسه ويوبّخها ثم يأطرها على الحق أطرا ، ولا يزال يحرقها بنار الحزن والبكاء ويكويها بسيوف المخالفة لها في رضاء الله حتى يطوّعها إلى العبودية لله عزّ وجلّ ولزوم بابه سبحانه فترجع عبداً قنّا خالصاً لله عز وجل معترفة بهذه العبودية تعبد الله مقام الإحسان حتى لكأنها تراه .

قيل لبشر الحافي ، إنّ أخاك ابن المنكدر[1] يبكي منذ ليال فتعال إليه : فلما جاء قال له :

. . . لم تبكي يا أخي .

قال : أبكي لقوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ [مريم : ٧١] ذكر سبحانه الورود ولم يذكر الخروج ، فلعلي أرد النار ولا أخرج منها .

فبكى بشر ، بكى أكثر منه . . .

فقيل له : جئنا بك لتسكته فبكيت مثله . . .

* * *

أجل : غداً . غداً تزول مسرحية الحياة كلّها ، ولا يبقى من هذا الغرور شيء ، تزول هذه الأكسية والأردية والجاهات والأموال والبنون والزوجات ، الحياة وصخبها وضوضاؤها ولذاتها ومحنها ، آلامها وآمالها . . . كل أولئك وسيلة لا غاية : والفوز يوم القيامة هو الغاية .

وصدق الله إذ يقول :

﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ [آل عمران : ١٨٥] .

* * *

---

(١) محمد بن المنكدر : (٥٤ـ١٣٠ هـ) (٦٧٤ـ٧٤٨م) . محمد بن المنكدر بن عبد الله بن الهدير (بالتصغير) بن عبد العزّى القرشي التيمي (من بني تيم بن مرة) المدني ، زاهد من رجال الحديث تابعي من أهل المدينة ، أدرك بعض الصحابة وروى عنهم ، له نحو مئتي حديث . قال ابن عيينه : ابن المنكدر من معادن الصدق .

انظر : تاريخ الإسلام للذهبي ، وتهذيب التهذيب ، وخلاصة تهذيب الكمال ، والأعلام ٧/ ١٦٠ .

مصادر الكتاب ومراجعه

ـ المراجع القرآنية والحديثيّة :

تفسير لطائف الإشارات	القشيري
تفسير روح المعاني	الآلوسي
فيض القدير شرح الجامع الصغير	المناوي
شرح فتح الباري على صحيح البخاري	ابن حجر العسقلاني
السيرة النبوية مع شرحها الروض الأنف	ابن هشام والسُّهيلي
محمد المثل الكامل	محمد أحمد جاد المولى
النهاية في غريب الحديث	ابن الأثير الجزري
جامع الأصول	ابن الأثير الجزري
أصول الفقه	ابن الأثير الجزري
خلاصة تهذيب الكمال	الخزرجي

ـ التراجم :

أحس الأثر	محمد صالح الكاظمي
أحسن الوديعة	محمد مهدي الكاظمي
الطبقات	ابن سعد
الإصابة	ابن حجر العسقلاني
الاستيعاب	ابن عبد البر
الرياض النضرة	المحب الطبري
الحلية	أبو نُعيم
تاريخ الخلفاء	السيوطي

الأعلام	الزركلي
معجم المؤلفين	كحالة
المحاسن اليوسفية	ابن شدّاد
أعلام النساء	كحالة
الدرُّ المنثور في طبقات ربات الخدور	زينب فواز
تذكرة الحفاظ وذيلها	الذهبي
صفوة الصفوة	ابن الجوزي
طبقات الصوفية	أبو عبد الرحمن السُّلمي
حياة الصحابة	الكاندهلوي
تاريخ بغداد	الخطيب البغدادي
تاريخ التراث العربي	د. فؤاد سزكين
تاريخ مدينة دمشق	الحافظ ابن عساكر
ابن عابدين وأثره في الفقه	د. محمد عبد اللطيف الفرفور

ـ التصوف:

الرسالة	القشيري
إحياء علوم الدين	حجة الإسلام أبو حامد الغزالي
روضات الجنان	الخونساري
الفتوحات المكّيّة	الشيخ الأكبر ابن عربي
مسامرة الأخيار	الشيخ الأكبر ابن عربي

ـ الأدب:

وحي القلم	مصطفى صادق الرافعي
العبقريات الإسلامية	العقّاد

* * *

المحتويات

تقديم ٥
الإهداء ٧
مقدِّمة المؤلف ٩
* القسم الأول: ١٣
الباب الأول: سرج الدنيا ومصابيح الآخرة ١٥
ـ الباشا والشيخ ١٧
ـ الباشا وفقيه النفس ٢٦
ـ في الطواف ٢٩
ـ الامتحان الصعب ٣٧
الباب الثاني: عبقريات خالدات ٤٥
الفصل الأول: أحاديث سمرقند: ٤٧
ـ علم النُّور ٤٧
ـ الإمارة والسموُّ الروحي ٦٤
ـ علماءُ وأمراء ٧٠
ـ السيدةُ الطاهرة في وجه ابن طولون ٧٩
الفصل الثاني: رؤيا في بلخ ٨٦
ـ من أحاديث الحكماء ٨٦
ـ من دروس النبوة ٩٤
ـ سيِّدُ التابعين ٩٧
ـ الرُّؤيا وفلسفةُ القصة ١٠٤
الباب الثالث: من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ١٠٧
ـ من شبان القرآن ١٠٩
ـ شهر العسل في الجنة (أو غسيلُ الملائكة) ١١٤

ـ قاهر الأكاسرة ١١٧
ـ فارس رسول الله ﷺ ورضي عنه ١٢٠
ـ سيِّد أهل عصره ١٢٦
ـ عظمات الرَّشيد ١٣١
ـ أمَّة في رجل ١٣٨
* القسم الثاني: ١٤١
الفصل الأول: السِّراج المنير محمد رسول الله ﷺ ١٤٥
ـ الله الرحمن ١٤٧
ـ رسول الله وخاتم النبيين ١٤٩
ـ دوحة الرسالة وما تفرَّع عنها ١٥٧
ـ محمد ﷺ بين الرحمة والحب ١٥٩
ـ من مواقف محمد صلوات الله عليه في الرحمة والحب ١٦٣
ـ آيات الحب الرفيع في حياة محمد ﷺ ١٦٧
ـ شرع الحكمة وفقهها في الإسلام ١٦٩
الفصل الثاني: مشاعل مشاعل مشاعل ١٧٢
ـ إنَّه ليس بملك إنها النُّبوة ١٧٢
ـ صاحب الدعوة المجابة ١٧٨
ـ أستاذ الملوك ١٨٢
ـ أمير البصرة، رجل عطر الله اسمه في السماء ١٨٧
ـ شيخ وجنرال ١٩٤
ـ مفتي الشام وإمبراطور ألمانيا ٢٠٠
الفصل الثالث: على الطريق ٢٠٤
ـ ردة الذبابة ومؤتمر إبليس ٢٠٤
ـ حقيقة الفقه وربانية الفقهاء الأولين ٢١٤
مصادر الكتاب ومراجعه ٢٢١
المحتويات ٢٢٣

* * *